مباحث في

البلاغة القرآنية

أ / محمد عيسي أبو نجيلة

عضو هيئة التدريس بكلية التربية

جامعة بنغازي

للنشر و التوزيع

مباحث في
البلاغة القرآنيــــة

أ . محـمـد عيسـى أبـو نجـيـلـة
عضو هيأة التدريس بكلية التربية
بجامعة بنغازي

مباحث في
البلاغة القرآنيـــة

أ . محـمـد عيسـى أبـو نجـيلـة
عضو هيأة التدريس بكلية التربية
بجامعة بنغازي

الناشر
دار ومكتبة الفضيل للنشر والتوزيع
بنغازي – ليبيا – هاتف 9092246
E-mail:alfadel_lib@yahoo.com

حقـوق الطبـع محفوظــة

سنـة النشــر 2012 م
الطبعـة الأولى

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية
بنغــازي – ليبيا
هاتف : 9097074 - 9096379 - 9090509
بريد مصور : 9097073
البريد الإلكتروني :
nat_lib_libya@hotmial.com
رقم الإيداع : 596 /
ردمك ISBN 978 – 9959 - 1 - 1116 - 6

التنفيذ الفني / أكرم محمود جودة

مباحث في

البلاغة القرآنية

أ . محمد عيسى أبو نجيلة
عضو هيأة التدريس بكلية التربية
بجامعة بنغازي

2013

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[يوسف : 3]

المقدمـــــة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، وجعله معجــزاً للعالمين ، وأودع فيه من صنوف الإعجاز ألواناً ، وأرسل نبيَّــه الخــاتم محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليبيّن مراده ، اللهم صلِّ على من تدبّر القرآن فوعاه ، وعمل به فأداه ، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً .

وبعد . .

فهذه مجموعة دروس في البلاغة القرآنية كنت قد أعددتها لطلابنا

في قسم الدراسات الإسلامية منذ العام الدراسي 2007 ــ 2008 حتــى العام الدراسي 2010 ــ 2011 م. وهي محاضرات المنهج المقرر فــي مادة " البلاغة القرآنية " .

ولمّا كانت هذه المادة من المقررات الحديثة التي لم نعثر لها على كتاب يتناسب مع طبيعة المادة ومستوى الطلاب ــ كان من الواجب عليَّ أن أضع لها منهجاً مناسباً ، ثم إن بعض الأخوة الأفاضل ، من أعــضاء هيأة التدريس أشاروا عليَّ بوضع كتاب يحتوي المنهج المقرر يعتمد عليه الطلاب ، ويرجع إليه الراغبون ، فاستعنت بالله على إنجاز هذا الطلب ، وقمت بمراجعة ما كتبته وتنقيحه ، وتهذيبه وتشذيبه راجياً من الله الكريم أن يسدد عملي ، وييسر أمري .

وينبغي أن أشير ــ هنا ــ إلى أنّ أستاذنا الدكتور عمر خليفة بن إدريس قد درّس هذه المادة قبلي ووضع للطلاب مذكرة تتناول موضوعات المنهج ، وقد اطلعت عليها وأفدت منها .

كما أفدت في كتابي هذا من مجموعة من المصادر والمراجع الأصيلة ؛ منها استقيت المادة الخام لهذا الكتاب من ذلك : كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، وتفسير الكشاف للزمخشري ، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وكتب أخرى أشرت إليها في مواضع الاقتباس .

ثُمَّ إنّ أهم ما يميز هذا الكتاب أنه تناول موضوعات البلاغة العربية مبيناً مهادها النظري مردفاً بها الشاهد القرآني ، مع التحليل اللغوي والبلاغي ، وبيان المعنى المراد من الشاهد . وقد حاولت أن أقدّم ذلك كله بأسلوب سهل واضح يلائم مستوى الطالب الجامعي ، مبتعداً عن صعوبة الجملة ، وخفاء المعنى الذي نجده أحياناً في كتب التراث .

ولا يفوتني أن أقدم جزيل شكري وتقديري لكل من أفدت منه ، أو أسدى إلي توجيهاً ، أو ساهم في ظهور هذا الكتاب في صورته هذه ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وأجزل لهم جميل العطاء .

وأنا إذ أقدم هذا العمل واضعاً إياه بين أيدي إخواني الأساتذة المتخصصين أرجو أن يتكرموا بقبوله ، وأن يمدوني بملاحظاتهم المفيدة

بغية تطويره خدمةً للعلم الشريف ، شاكراً لهم حسن ظنهم .

﴿ **وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾

المؤلـــــف

بنغازي : 26 / جمادي الأولى/1433هـ.

الموافق : 18 / 4 / 2012 م .

المبحث الأول

مفهوم البلاغة القرآنية

المبحث الأول
مفهوم البلاغة القرآنيـة

- **مفهوم البلاغة**:

البلاغة القرآنية علم يُعْنى بدراسة جانب من جوانب الدراسات القرآنية ، ويبحث لوناً من ألوان جمال التعبير القرآني ، ويبرز وجهاً من وجوه الإعجاز التي تفرّد بها ، ولهذا العلم مباحثه وأبوابه وموضوعاته، وقبل أن نستعرض هذه الموضوعات يجدر بنا أن نعرِف : ما المقصود بالبلاغة القرآنية ؟

يتكون اسم هذه المادة العلمية من كلمتين هما : كلمة " البلاغة " وكلمة " القرآنية " ، وحتى يتضح الأمر ، ويظهر المقصود فإننا سنحاول شرح المقصود بهاتين الكلمتين لغةً واصطلاحاً .

- **معنى البلاغـة** :

البلاغة لغة الوصول ، فيقال : بلغ المكان أي : وصل إليه أو شارف عليه وقاربه ، وبابه : دَخَل ، فالمضارع منه : يَبْلُغ[1] .

وفي القرآن الكريم : ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾ [النساء:63] أي : " قل لهم قولاً يغوص في أنفسهم ويبلغ غاية ما يُراد منه "[2] .

---

(1) ينظر : محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، مادة " بَلَغَ " .

(2) محمد حسن الحمصي ، القرآن الكريم تفسير وبيان ، ص 70 .

ومن معاني البلاغة في اللغة : الانتهاء إلى الغاية ، ولذلك فـإن سبب تسمية البلاغةِ بلاغة لأنها سبيل توصيل المعنى إلى قلب المتلقي ، وإيصاله إليه فيفهمه .

هذا هو معنى البلاغة لغةً ، أما معناها في الاصطلاح فقـد أورد الأدباء والبلاغيون لها معانٍ كثيرة منها ما ذكره الجاحظ فـي " البيـان والتبيين" ، جاء فيه " قيل للفارسيّ : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفـصل من الوصل . وقيل لليونانيّ : ما البلاغة ؟ قـال : تـصحيح الأقـسام ، واختيار الكلام . وقيل للروميّ : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة .

وقيل للهنديّ : ما البلاغة ؟ قال : وضـوح الدّلالـة ، وانتهـاز الفرصة ، وحسن الإشارة " [1].

فالمفهوم الأول ركَّز على بابٍ من أبواب البلاغة ، هو الفـصل والوصل ، فالكلام إذا جاء مترابط الأجزاء ، فُصلت الجملة المفيدة فيـه عن سابقتها فلم تعطف عليها لاستغنائها عنها ، كان كلاماً بليغـاً ، وقـد توصل الجملة بما جاورها بحرف من حروف الوصـل إذا كـان ذلـك الوصل يتمم المعنى المقصود ، ويربط بين الجملتين ربطاً لفظياً يخـدم الغرض الذي سيق الكلام من أجله .

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين ، 1 / 88 .

وكان تركيز الفارسي على الفصل والوصل لأنه من أدقّ فنـــون البلاغة وأدلّها على البراعة ، قال الجرجاني عنه : إنـــه " مـــن أســـرار البلاغة ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص ، والأقـــوام طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد . وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة . . " [1]. وسيأتي بيان أسرار هذا الباب ــ إن شاء الله ــ في موضعه .

ويركز مفهوم اليوناني على أمرين اثنين هما : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام ؛ والمقصود بـــ " تصحيح الأقسام " توضـــيح المعـــاني بحيث تكون مفهومة غير غامضة، حسنةً غير قبيحة ، قريبة غير غريبة، نادرة غير مبتذلة . قال محمد بن الحنفية ــ رضي الله عنه ــ في تفسير معنى البلاغة : " قول تضطر العقول إلى فهمه بأســـهل العبـــارة "[2] . فكون العقول تفهمه فإن ذلك يدلّ على وضوح معناه .

والصفة الثانية للكلام البليغ هي أن تكون ألفاظه مختارة ، فلـــيس من البلاغة أن تأتي الألفاظ كيفما اتفق ، وإنما حقُّ الألفاظ أن تكون سهلةً فصيحة ، رصينة غير سوقية ، فلا يلجأ المتكلم أو الكاتب البليـــغ إلـــى الكلام الذي تستعمله العامة ، وهو لا يبحث كذلك عن الألفـــاظ الغريبـــة المتروكة أو الحوشية الوعرة .

---

(1) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 170 .

(2) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 12 .

وبناءً على ما تقدم فإنَّ البلاغة : كلّ ما تبلِّغُ بـه المعنـى قلـب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنِه في نفسك مع صورةٍ مقبولـةٍ ومعـرِض حسن[1] ، ويُفهم من هذا أن البلاغة صفة للكلام في الأصل ، فإذا أطلقنا هذه الصفة على المتكلم فقلنا : هذا رجل بليغ فـإنّ ذلـك مـن التوسـع والمجاز ، ويكون المقصود حينئذٍ أن البليغ هو المتكلم الذي له ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، ولا توصف اللفظة المفردة بالبلاغة لأن حقيقة البلاغة ــ كما مرَّ ــ معنى تام مفهوم بلفظ سهل سلس ، والكلمة المفردة لا تؤدي معنى تاماً مفيداً ، وإنما قد تحمل معنى جزئياً في نفسها.

وللبلاغة معنى اصطلاحيّ ارتضاه أهل هذا العلم فقالوا : "البلاغة في الكلام مطابقتُه لمقتضى الحال مع فصاحته " [2]، ومعنـى مطابقـة الكلام لمقتضى الحال أي : أن يناسب الكلام الحال التي أُلقي فيها ، فلكل حال كلام ، ولكل مقام مقال .

والأحول تتنوع وتتباين فهناك حال السرور والـسعادة، وحـال الحُزن والتعاسة ، وهناك حال الرضى وحال السخط أو البسط والقبض ، أو الشكر والمدح أو الهجاء والقدح . . . إلخ .

---

(1) المصدر نفسه ، ص 10 .

(2) الخطيب القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص 42 .

فالكلام الذي يقال في المدح ــ مثلاً ــ لا يصلح أن يقال في حالة الذم والقدح ، فلما تعددت مقامات الكلام وأحواله تنوعت طرق التعبيـر وأساليبه .

فقد يحسن الذكر في مقام لا يصلح فيه الحذف ؛ ويصلح الحـذف في مقام لا يصلح فيه الذكر وهكذا مما هو معلوم ، وسيأتي بيانه في هذا الكتاب .

والبلاغة مراتب بعضها أعلى من بعض ، وأعلاها رتبةً هي رتبة الكلام المعجز الذي لا يطيق أحد أن يأتي بمثله ، وهذه الرتبة هي رتبـة كلام الله ــ عزَّ وجلّ ــ القرآن الذي عجز بلغاء العـرب ــ مـع شـدة كفرهم به ــ عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه .ثم بعد هـذه المرتبـة تأتي مرتبة كلام رسول الله محمد ــ صلى الله عليـه وسـلم ــ أفـصح العرب ، الذي أوتي جوامع الكلام ، ثم يأتي بعد هذه الرتبة البلغاء مـن العرب الجاهليين والإسلاميين ، وهكذا تتفاوت الرتب حتى تنـزل إلـى رتبة الكلام السوقي العامي الذي لا بلاغة فيه .

وشرط الكلام البليغ أن تكون مفردات ألفاظه فـصيحة ، وهـذا يستلزم أن نبيّن المقصود بالفصاحة .

- معنى الفصاحة :

الفصاحة لغة : الظهور والبيان ، قال الله ـ تعالى ـ على لسان موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾ [القصص:34]، أي أبين مني قولاً .

والفصاحة صفة للكلمة المفردة، وللكلام وللمتكلم ؛ فالمفردة الفصيحة هي الكلمة التي سلمت من عيوب أربعة :

1 ـ تنافر الحروف . 2 ـ غرابة اللفظ .

3 ـ مخالفة القياس 4 ـ الكراهة في السمع .

والمعوّل عليه في إدراك هذه المعايير هو الذوق السليم ، والمعرفة بكلام العرب؛ والمقصود بتنافر الحروف ثقل وقْع الكلمة في السمع كما في كلمة " مُسْتَشزِرات " في قول امرئ القيس [(1)]:

غدائرُه مستشزراتٌ إلى العُلا تضِلُّ المدارى في مُثنَّى ومُرْسلِ

فالشاعر استعمل كلمة " مستشزرات " وهي كلمة نأت عن الفصاحة بسبب صعوبة نطقها على اللسان لوقوع حرف الشين بين التاء

---

(1) ديوان امرئ القيس ص : 51 ، ومعنى البيت : يصف الشاعر شعر المرأة بأن بعضه مجدول إلى فوق ، وبعضه مرسل فلا يتبين الناظر هذا من ذاك لوفرته وكثافته .

والزاي ، فالتاء والزاي حرفان متقاربا المخرج ، فيصعب نطـق هـذه الحروف متتابعة لما يحدث من حركة اللسان في الانتقال من مخرج إلى آخر مقارب له وقد تتداخل الحروف في النطق في هذه الحالة .

وأمّا غرابة اللفظ فالمقصود منه استعمال اللفظ الوحشي الغريـب غير المألوف ككلمة " مُسَرَّج " التي استعملها العجَّاج في وصف المَرسِن " الأنف " وعني بها أن الأنف له بريق كبريق السِّراج ، وذلك في قوله :

أيـام أبـدت واضـحاً مُفلَّجـاً   أغـرَّ برّاقـاً وطرفـاً أبلجـا
ومقلـةً وحاجبـاً مزججـا   وفاحمـاً ومرسـناً مـسرّجَا

والعيب الثالث من عيوب اللفظ الذي ينأى بالكلمة عن الفـصاحة مخالفتها للقياس الصرفي العربي كما في كلمة " الأجلل " الـذي قياسـها الصحيح " الأجلّ " في قول الشاعر :

الحمـد لله العلـيّ الأجلـلِ   الواحـدِ الفـرد القـديم الأوّل

وتكون اللفظة فصيحة كذلك إذا كانت خفيفة على المسامع ، أمـا إذا كانت مكروهة في السمع ثقيلة عليه كلفظة " الجِرشَّي " للنَّفْس ، فإنها ليست فصيحة ، قال المتنبي يمدح سيف الدولة :

مُبَـارك الاسـمِ أَغَـرُّ اللَّقـبْ   كريمُ الجِرشَّي شـريفُ النـسبْ

هذه هي صفات الكلمة الفصيحة ، وأما الكلام الفصيح فهو الكلام الذي سَلِمً من :

1 ـــ تنافر الكلمات .

2 ـــ ضعف التأليف .

3 ـــ التعقيد اللفظي .

4 ـــ التعقيد المعنوي .

1 ـــ فتنافر الكلمات بمجيئها ثقيلة يضطرب اللسان عند النطـــق بهـــا، ويحدث ذلك بتكرار حرف أو حرفين من كلمة كمـــا فـــي قـــول القائل:

وقبـــرُ حـــرب بمكـــانٍ قفـــر وليس قرْبَ قبـــر حـــربٍ قبـــرُ

وقد يكون التنافر راجعاً إلى إيراد أفعال يتبع بعضها بعضاً مـــن غير عطف كقول المتنبي :

أقلْ اتل أقطع احمل عُل سل أعد

زِدْ هشّ بشّ تفضل ادن سِر صِلْ

وربما كان سبب التنافر هو تعاقب الحروف إثر بعض كما في بيت أبي تمام :

كأنه في اجتماع الروح فيه لـه   في كل جارحةٍ من جسمه روح

2 ــ أما ضعف التأليف فيكون بمخالفة قواعد العرب في تركيب كلامها ، وذلك بأن يأتي الكلام مخالفاً لقانون النحو ، كأن يعود الضمير على لفظ متأخر نحو : ضرب غلامُه زيداً .

3 ــ والشرط الثالث الذي يجب أن يتسم به الكلام الفصيح هو : أن يسلم من التعقيد اللفظي ، وحقيقة التعقيد اللفظي أن تأتي الألفاظ مرتبة ترتيباً يخالف ترتيب المعاني ، فيؤدي ذلك إلى إفساد نظام الكلام وتركيبه بسبب التقديم والتأخير غير المتلائم ، ويحدث ذلك في صور منها تقديم الصفة على الموصوف ، أو الصلة على الموصول ، ومن ذلك قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً   أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

أراد : وما مثله في الناس حيّ يقاربه ويشبهه في الفضائل إلا مملكاً أبو أم ذلك الملك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خال الملك، وخلاصة ذلك أنه لا يماثله إلا ابن أخته [1].

---

(1) المبرد ، الكامل ، 1 / 18 ، والمراغي ، علوم البلاغة ، ص 30

4 ـــ ورابع شروط الكلام الفصيح أن يخلو من التعقيد المعنوي كما في قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بُعْدَ الدارِ عنكم لتَقرُبــوا

وتسكب عيناي الدموع لتجمــدا

فالشاعر استعمل كلمة " تجمد " في معنى غير صحيح ، فقد أراد بها لازم السرور ، فكنى عن سروره بجمود عينيه ، وهذا معنـــى غيـــر صحيح إذ إن جمود العين خلوها من الدموع أو بخلها بها عنـــد موقـــف الحزن [1].

فاستعمال الكلمة لتدلّ على معنى بعيد غير واضح ، وغير معهود الاستعمال في لغة العرب يؤدي إلى خفاء المعنى وبعده .

وبناءً على ذلك فإن الكلام الفصيح ينبغي أن يـــسلم مـــن خفـــاء المعنى المراد ، والإغراب والإغراق ، فلا يكون رموزاً غامضة ،وقـــد مدح البلغاء مقاربة المعنى وقربه ، وأثنوا على الكلام الذي يكشف لـــك عن معناه ، وخلاصة الأمر أنَّ " الكلام الفصيح هـــو الظـــاهر البـــين ، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة ، لا يحتاج في فهمها إلـــى

(1) ينظر : الخطيب القز ويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، 1 / 11 .

استخراج من كتاب لغة . وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر ، دائرة في كلامهم . . . " [1].

وإذا كانت تلك الخصائص هي سمات الكلام الفصيح ، وعناصر تركيب الكلام البليغ ، فإن هذا الكلام الموصوف بالبلاغة لا يصدر إلا من متكلم يتصف بالبلاغة ، كذلك والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : كيف يكون المتكلم بليغاً ؟ .

لا شك أنّ أصل بلاغة المتكلم الفطرةَ النّقية ، والطبع السليم ، والموهبة البارعة ، ولأجل ذلك نجد أن الناس يتفاوتون في بلاغتهم ، وقد لاحظ العرب قديماً هذا الأمر ، فسعوا إلى تربية أبنائهم في بعض بوادي العرب التي كانت تتسم بالفصاحة والبلاغة . ولم تكن هذه الحقيقة خفية على علماء البلاغة الأوائل ، فقد أشار الرُّماني إلى ذلك حين قال : "أصل البلاغة الطبع ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزاناً لها . . . " [2].

وبين الرمّاني في نصه السابق أن الطبع وحده غير كافٍ لصناعة شخصية المتكلم البليغ ، ولابد من آلات أخرى تدعم الطبع وتسنده ، وتصقل القريحة وتغذيها ، وجماع هذه الآلات يعتمد على سعة الإطلاع ،

---

(1) ابن الأثير ، المثل السائر ، 1 / 81 . .

(2) أبو الحسن الرماني ، إعجاز القرآن ، ص

وكثرة قراءة النصوص البليغة ، وحفظ أجودها ، ومحاكاتها في التعبير ، وممارسة الكلام والكتابة الأدبية والمران على ذلك ليكتسب المريد دربة وخبرةً تكون له زاداً وقت التكلم أو الكتابة .

ومما سبق يتبين لنا أنَّ مقومات المتكلم البليغ تنحصر في : موهبة بارعة ، وقراءة واسعة ، وحفظ الجيد من النصوص ، وممارسة التعبير. أما مقومات الكلام البليغ وعناصره فهي ألفاظ فصيحة ، ومعانٍ صحيحةً، وأفكار مبتكرة ، وأسلوب بديع .

وبعد بيان المقصود من كلمة البلاغة فإني أبين المقصود من وصفها بـ " القرآنية " . إن وصف البلاغة بالقرآنية هنا يعني نسبتها إلى القرآن خاصة ، فهناك البلاغة العربية المنسوبة إلى الكلام العربي وفيها يبحث عن بلاغة كلام العرب من شعر ونثر ، أمّا البلاغة القرآنية فتبحث في بلاغة القرآن الذي هو كلام الله عزَّ وجل .

ومعلوم أنّ القرآن هو كلام الله المعجز ، المنزل على خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ باللفظ العربي المبين ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المجموع بين دفتي المصحف المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس .

وبناء على ذلك فإنّ بحثنا في هذا الكتاب يقتـــصر علـــى الـــنص القرآني ، ولا يستدل بنصوص البشر إلا من باب التمثيل لبيان المقصود أو لتوضيح القاعدة النظرية .

نشأة البلاغة وتطورها

بدأت البلاغة عند العرب صادرة عن الطبع والـذوق ؛ فكانـت نصوصهم الشعرية والنثرية خير شاهد على فـصاحة كلامهـم ، وقـوة تعبيرهم ، وجودة معانيهم ، فنراهم وإن ارتجلوا الكلام ، ولم يعدوا لـه عدته يسعفهم طبعهم في تخيّر الألفاظ المناسبة لمعانيهم ، وإن هم تهيئوا للكلام وأعدوا له عدته نمّقوه وعدّلوه ، وجعلوا ألفاظه تسفر عن معانيه ، ومعانيه تصيب عين المراد .

إنّ هذه الحقيقة التي قررناها ــ تظهـر جليـة فـي أشـعارهم وخطبهم وحكمهم وأمثالهم ، فخذ ــ مثلاً ــ قول زهير :

وفيهم مقامات حسان وُجوهُهُم — وأندية ينْتَابُهـا القـولُ والفعـلُ
وإن جئتهم ألفيْتَ حول بُيوتهم — مجالسُ قد يُشْفَى بأحلامها الجهلُ
وإن قام منهم قائم قـال قاعـد — رَشَدْتَ فلا غُرْم عليك ولا خـذْلُ
على مكثريهم حقٌّ من يعتريهُمُ — وعند المُقلِّين السماحةُ والبـذْلُ

فأنت ترى في هذه الأبيات المعنى الرفيـع ، والإيجـاز البـديع والوصف الدقيق ؛ فهو يعبر عن معنى " القيم " فيمدح رجـال قومـه ، ويصفهم بأنَّهم حكماء يجري الحوار بينهم في المواقف المختلفة " مقامات"

فيعرض كل واحد منهم حجته وبرهانه ، فإن اختلفوا كان الحسم راجعاً إلى البرهان والإقناع . . . . [1]

فانظر كيف عبر زهير عن هذه المعاني بأسلوب موجز دقيق وألفاظ مصوِّرة موحية ، فصيحة بيّنة ، وهذا هو حالهم إذا تعاطوا فنَّ القول ، ونجد الأمر نفسه في تعليقاتهم على النصوص ، وملاحظاتهم على الأدب الإنشائي ، فهم يمدحون فصاحة اللسان ، ووضوح المعاني وجودتها وترابطها .

ويمكن أن نلتمس ذلك في عباراتهم ؛ فهذا عمر بن لجأ يقول لبعض الشعراء : أنا أشعر منك قال : وبم ذاك ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه [2]. فإننا نراه يجعل تناسب الأبيات المتجاورة في القصيدة وتلاؤمها معيار جودة الشعر وبلاغته .

وهم يمدحون الإيجاز ويعدونه أُسَّ البلاغة ، فها هو شاعر من شعرائهم يقال له " أبو المهوِّش " يُسأل عن سبب إيجازه في هجائه فيقول: " لم أجد المثال النادر إلا بيتاً واحداً ، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً " [3].

---

(1) ينظر : محمد أبوموسى ، الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ، ص 325 وما بعدها .

(2) الجاحظ ، البيان والتبيين ، 1 / 206 .

(3) المصدر السابق ، 1 / 207 .

هكذا كانت مقاييسهم البلاغية ، ومعاييرهم الإبداعية ملاحظات تأثرية ، وأقوالاً فطرية نابعة من الذوق ، متأثرة بالطبع ، وبقيت هذه المقاييس كذلك تنقل شفاهة ، بيد أنها تعبر عن ذوقٍ عَرَف الجمال وأحسَّ به ، وخبر الإبداع وجربَّه .

وإذا كانت البلاغة هي فن القول الجميل ، والإحساس بالجمال ، فإن معيار الجمال عند البلغاء ، لم يكن واحداً ، وإنما نظر كلّ واحد منهم إلى الجمال نظرةً قد تختلف عن الآخر ، فمنهم من يرى جمال التعبير في الإيجاز ، ومنهم من يرى ذلك في القدرة على الإطناب ، ولكنَّ الضابط الذي لا يكاد يُختلف عليه هو مناسبة الكلام للمقام ، وهو ما عبروا عنه فيما بعد بقولهم : " لكل مقام مقال " .

- **أثر القرآن والسنة في تطور البلاغة** :

ظلّت البلاغة ــ عند العرب ــ هكذا ، حتى نزل القرآن الكريم ، وأرسل النبيُّ الكليم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فظهرت البلاغة المعجزة ، وبرز القول الجامع الذي لا يبارى ولا يجارى ، فوقف بلغاء العرب مدهوشين أمام بلاغة القرآن ، معترفين بروعته وجماله ، فهذا الوليد بن المغيرة يقول معلقاً ــ بعد سماعه آيات القرآن الكريم ــ : "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنسان ولا من كلام

الجنّ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعــلاه لمثمــر ، وإن أسفله لمُغْدق .

وقد كان لأسلوب القرآن الكريم ، وبلاغة الرسول ــ صــلى الله عليه وسلم ــ في خطبه وأحاديثه أثر كبير في نمو البلاغة وتطورها في جانبيها الإنشائي " الإبداعي " ، والوصفي " العلمي " ، فقد أفاد الشعراء والخطباء من أسلوب القرآن وطرائق تعبيره ، كما كان ــ للرغبة فــي فهم القرآن ، والبحث عن سرّ إعجازه ــ أثره الكبير في ظهور النظرية البلاغية ، وتأليف الكتب في البحث البلاغي .

ولعله من المفيد ــ هاهنا ــ أن نشير إلى أهم عاملين ، وأبــرز حافزين كانا سبباً في ظهور المباحث البلاغية ، وتطور البلاغة العربيــة بصفة عامة ، والبلاغة القرآنية بوجه خاص . إنَّ هذين الحافزين هما :

أولاً : محاولة العلماء العرب المسلمين معرفــة كنــه إعجــاز القــرآن وخصائصه .

ثانياً : الدفاع عن القرآن الذي تعرض للطعن فيه مــن قبــل الزنادقــة والشعوبية المشككة[1] . فقام العلمــاء للــدفاع عنــه فوضــعوا الدراسات في شتى المجالات والتخصصات ، ومنهم البلاغيون .

---

(1) ينظر : أحمد جمال العمري ، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، ص24.

وتطلَ علينا مجموعة من الدراسات البلاغية من أبرزها : كتاب البديع لعبدالله بن المعتز (ت 296 هـ) ، ورسالة النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرُّماني (ت 386 هـ) ، ورسالة أحمد بن محمد الخطابي (ت 388 هـ) في إعجاز القرآن ، ورسالة إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403 هـ) ، وهذه الكتب بحثت قضية الإعجاز وحاولت تفسيرها وبيان سرها .

وثمة نوع آخر من البحث البلاغي تمثله الدراسات النقدية التي قامت على أساس البلاغة وضوابطها كعيار الشعر لابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ) ، وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت 371 هـ) ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 392 هـ) .

وكان للأدباء نصيبهم في البحث البلاغي ــ فأردف عملهم عمل اللغويين والنقّاد ــ فنجد أبا هلال العسكري (ت 395 هـ) يساهم بكتابه " الصناعتين " في البحث البلاغي فيتناول موضوعات كثيرة في المعاني والبيان والبديع ويناقشها نقاشاً علمياً ، ويحلل النصوص الأدبية تحليلاً بلاغياً .

كما كان لابن رشيق القيرواني (ت 463 هـ) دوراً بارزاً في النقد المؤسس على القواعد البلاغية ، والملاحظات الفنية التذوقية ،

ويظهر ذلك في كتابة " العمدة في صناعة الشعر ونقده " . وفي العصر نفسه يظهر كتاب " سرّ الفصاحة " لابن سنان الخفاجي الحلبي (ت 466 هـ) الذي عني ببيان سرّ الفصاحة وما تنطوي عليه من الصور البيانية والبديعية [1].

هكذا كان حال الدراسات التي تعني بالبلاغة ؛ مفرقة في كتب علوم اللغة والأدب والنقد والكلام حتى جاء عبدالقاهر الجرجاني (ت 471 هـ) ووضع نظريتي علم المعاني والبيان وفصل علمي المعاني والبيان عن الأدب وجعل البلاغة بحثاً مستقلاً ، ووضع أبواب كل علم منهما ، فكان كتابه " أسرار البلاغة " بياناً لموضوعات علم البيان ، وكتاب دلائل الإعجاز بياناً لموضوعات علم المعاني .

وقد سار من جاء بعد الجرجاني على نهجه ، والتزموا تقسيمه لأبواب البلاغة ، ولا تكاد بحوثهم تضيف شيئاً ذا بالٍ على ما قرره في كتابيه " أسرار البلاغة " ودلائل الإعجاز " .

وبوضع عبدالقاهر الجرجاني نظريتي علم المعاني وعلم البيان ، صارت كل منهما تمثل علماً مستقلاً من علوم البلاغة له ضوابطه وقوانينه وقواعده ، وكانت نظرة الجرجاني مبنيةَ على التذوق والإحساس بصورة كبيرة ، وقد أكثر من الاستشهاد بالنصوص وقام بتحليلها ،

---

(1) ينظر : شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 152 .

فأسس لمدرسة التحليل النصي في البلاغة العربية ، ثم جاء بعد الجرجاني عالم معتزلي هو جار الله الزمخشري (ت 538 هـ) الذي حاول تطبيق نظرية الجرجاني في " النظم " على النص القرآني ، فجاء كتابه " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " .

ويعد هذا الكتاب دراسة بلاغية تطبيقية على النص القرآني تبرز خصائص أسلوبه وطريقة تعبيره ، وتكشف عن معانيه ، معتمدة على التحليل البلاغي ، وقد انطلق الزمخشري في ذلك من قناعةٍ آمن بها ، ونظرة دعا إليها ؛ تلك القناعة التي صرّح بها في مقدمة كتابه "الكشاف " ومفادها : إن العالم لا يستطيع أن يتصدى لتفسير القرآن ، والغوص فيه لإخراج حقائقه وأسراره إلا إذا برع في علمي المعاني والبيان[1] .

إن الباحث في نتاج الجرجاني والزمخشري البلاغية ليجد أن الرجلين يمثلان مدرسة بلاغية كبرى تعتمد في بحثها على تذوق النصوص وتحليلها ، لذا فقد ازدهرت الدراسات البلاغية عندهما ، وخطت خطوات عظيمة إلى الأمام ، بيد أنّ هذا الازدهار والتطور توقف عند ظهور مدرسة أخرى هي مدرسة التقعيد والجمود ؛ تلك المدرسة التي مزجت البلاغة بالمنطق والفلسفة ، " وبذلك تحجرت قواعد البلاغة

---

(1) ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، مقدمة الكتاب ، ص 2 .

وتجمدت ، وبدا كأنه أصبح من المتعذر أن تعود إلى سيولتها القديمة التي كانت تُعدِّها لأن تنمو وأن تزداد وأن تتكاثر أثداؤها الغاذية . وسرعان ما شاع فيها العقد وعجّل به استقلال مباحثها عن الأدب ، فإذا هي تصبح مجموعة من القواعد الجافة كقواعد النحو والصرف ... " [1].

ولعل هذا الضعف قد كان بسبب ضعف الأدب العربي في ذلك الزمن من ناحية ، وغياب الذوق المرهف والحسّ البلاغي ، والملكة النافذة التي تمكن صاحبها من تحليل النصوص وكشف سرّ جمالها الخفيّ.

ويرجع ظهور هذه المدرسة المنطقية الفلسفية في البلاغة إلى كتاب " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " للرازي (ت 606 هـ) فقد جعل البلاغة مجموعة من القوانين والقواعد .

ثم ظهر كتاب " مفتاح العلوم " لأبي يعقوب السكاكي (ت 626 هـ) ، وتبعه من نهج منهجه ، وسار على طريقته ممن لخصوا كتاب " مفتاح العلوم " وشرحوه أو شرحوا التلخيص كالخطيب القزويني (ت 739 هـ) ، والبابرتي (ت 786 هـ) ، والتفتزاني (ت 791 هـ) وغيرهم .

---

(1) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 272 .

وظل حال البلاغة حتى يومنا هـــذا قواعـد مجـردة وقـوانين محفوظة ، يقيدها المنطق العقلي ، ويحاصرها الجـمود ، ويـضويها التقليد ، ويوهنها التكرار والترديد ، فما أحوجنا اليوم في هذا العصر إلى دراسات جادّة ، وبحوث جديدة تحيي روح البلاغة ، وتبعث فيهـا مـاء الحياة من جديد . وحتى يتحقـق ذلك الأمل ينبغي أن نعيد دراسة تراثنا بمنهجية علمية جديدة دقيقة ، على أن تكون تلك الدراسـة تجمـع بـين النظرية والتطبيق ، وتعتمد على الذوق والحـس إلـى جانـب العقـل والمعرفة .

المبحث الثاني

خصائص الجملة القرآنية

المبحث الثاني

خصائص الجملة القرآنية

الجملة القرآنية جملة عربية تختص بما تختص به الجملة العربية غير القرآنية، وتمتاز بما تمتاز به ، هذا من حيث التركيب العام والخصائص الرئيسة : فمن حيث التركيب العام هي تتركب من المسند إليه والمسند والرابط بينهما الذي هو الإسناد ، ومن حيث الخصائص فهي قد يحدث فيها تقديم وتأخير ، وحذف وإطناب ، وتعريف لأجزائها أو تنكير ، ونحو ذلك مما هو معلوم في علم النحو وعلم المعاني ، ومع هذا فإن الجملة القرآنية لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من الجمل العربية ، والبحث عن هذه الخصائص بحث أسلوبي يحتاج إلى جهد كبير وإنعام نظر ومقارنة ، وليس هذا الأمر بالسهل اليسير .

إن البحث عن خصائص الجملة القرآنية يحتاج إلى دراسات موازنة : دراسة توازن بين الجملة الاسمية القرآنية وغير القرآنية ، وأخرى توازن بين التقديم والتأخير في الجملة القرآنية وفي غيرها وهكذا، ومثل هذه الدراسات تكشف عن أوجه الإعجاز.

والهدف من هذا البحث التقاط بعض أوجه تميز الجملة القرآنية ، وليس بحث جميع أوجه التميز ، فإن ذلك أمرٌ يحتاج إلى دراسات كثيرة، وجهد كبير .

ويمكن دراسة خصائص الجملة القرآنية بتقسيمها إلى : خصائص التركيب ، وخصائص الترتيب ، وخصائص الذكر والحذف ، وخصائص التوكيد .

- **خصائص التركيب** :

تتركب الجملة القرآنية من ثلاثة عناصر رئيسة هي المسند إليه ، والمسند ، والرابط بينهما ، وهو الإسناد الذي يسمى " الحكم " ، فجملة ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح : 29] نجدها تركبت من المسند إليه " محمد " وهو المبتدأ هنا ، والمسند الذي هو الخبر " رسول " ، والعنصر الثالث هو الرابط بين المسند إليه والمسند ، والرابط هنا هو علاقة " الإسناد " وهو رابط معنوي ، يسمى الحكم ، فالجملة الاسمية هنا تركبت من هذه العناصر الثلاثة الرئيسة ، وأفادت معنى هو إسناد الرسالة إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقيد المسند بالإضافة ، وهذا القيد عنصر من عناصر التركيب غير الرئيسة .

وإذا كان تركيب هذه الجملة القرآنية مثل تركيب الجملة غير القرآنية ، فترى ما الخصيصة التي تميزها عن غيرها ؟ . إن أهم ما يميز هذه الجملة القرآنية هنا أمران : أولهما تخيّر ألفاظها من بين ألفاظ اللغة المرادفة لها . وثانيهما وقوع هذه الجملة في موضعها الملائم من السياق حيث إنها لو تقدمت أو تأخرت عن هذا الموضع لما أدت معناها

الذي أدته بدقة . فأما بيان الميزة الأولى التي هي تخير الألفاظ فنجـــد أن المسند ــ مثلاً ــ في الجملة " رسول " له مرادفات منها : " مرســـل ــ مبعوث... " .

وبتأمل هذه المرادفات سنجد أن أنسب كلمة لهـــذه الجملـــة هـــي الكلمة التي استعملها القرآن ، وأن أيَّ كلمة أخرى لا تؤدي المعنى المراد وذلك لأن كلمة " رسول " تناسب حروفها الحروف المستعملة في السياق، فهي ذات حروف خفيفة على اللسان، فهي أخـــف مـــن " مرســـل " أو " مبعوث " ، وهي تضاف إلى لفظ الجلالة " الله " بغير واسطة حرف الجر بخلاف " مرسل " أو " مبعوث " التي نقول فيها : " مرســـل مـــن الله " و " مبعوث من الله " ، ودلالة الإضافة المباشرة أقوى من دلالة الإضافة بالحرف وذلك لأن الإضافة المباشرة تفيد التشريف والتكريم كما في قول الحق ــ تعالى ــ : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : 63] ، وبتأمل سياق النص القرآني الشريف الذي وردت فيه الجملة الكريمة ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ﴾ نجد أنه مقام ثناء وتكـــريم وتـــشريف فناسب ذلك هذه الإضافة المباشرة ولذلك فإن كلمة " رسول " أنسب مـــن غيرها .

ومثل هذا الاختيار الدقيق للفظة المناسبة في الموضع المناسب لها نجده في آيات القرآن وجمله جميعها؛ ففي قول الله ــ تعالى ــ : ﴿وَقِيلَ

يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [هود : 43] نجد أنَّ مجموعة الجمل المتتالية عبرت عن ما حدث بعد الطوفان ، فالسياق يصور الهدوء والسكون الذي حدث عقب الطوفان ، وبالنظر إلى أي جملة من هذه الجمل نجد أنها تركبت من كلمات تناسب هذا الهدوء ، فإذا نظرنا إلى جملة ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ وجدنا المسند " قيل " بُني للمجهول ليدل على أنَّ الأمر صدر من الله من غير أن يسمعه من في الكون ، أو يروا قائله[1] ، وهذا ضربُ يناسب معنى الهدوء الذي يعبر عنه السياق .

وجاء اختيار حرف النداء " يا " لنداء الأرض دون الهمزة لأن استعمال الهمزة هنا يؤدي إلى ثقل في النطق إذا اجتمعت مع همزة " أرض " ، " وفُضّلت كذلك على " أيا " لما في هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض ، وهي رهن أمر الله ، في حاجة إليه، وأوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها ، فالمقام هنا يستدعي ذلك التصغير، ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر ، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بأيتها "[2] .

---

(1) ينظر : أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، مصر ، من غير تاريخ ، ص 55 .

(2) المصدر السابق ، والصفحة نفسها .

كما أن كلمة " ابلعي " جاءت لتُصيب مفصل المعنـــى ، وعـــين المراد ، فهي أدق تعبيراً من مرادفاتها : امتصي ، أو اشربي ، فـــابلعي عبرت عن إرادة اختفاء الماء بسرعـــة وهـــذا ما لا تعبر عنه كلمـــة : امتصي أو اشربي ، وكان تقييد الفعل بالمفعول " ماء " المـــضاف إلـــى ضمير الأرض ، وفي هذه الإضافة ما يوحي بأنَّ التكليف الصادر إليهـــا من الله أمر سهل ميسور .

وقد فطن الجاحظ قديماً إلى دقة القرآن في تخير ألفاظه ، حـــين قال : " وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع ، إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع، والعجـــز الظـــاهر ، والنـــاس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة ، وكـــذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فـــي موضـــع الانتقـــام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وذكر الغيث " (1).

ويزداد كلام الجاحظ وضوحاً بعقد مقارنة بين استعمال القـــرآن للفظتين مترادفتين في موضعين مختلفين ، وسياقين متبـــاينين ، ولـــتكن المقارنة بين لفظة " مطر " و " غيث" فمهما لفظتان مترادفتان ، ومع ذلك فإن دقة التعبير ، وإصابة البلاغة تجعل لكل لفظة منهما موضعاً يناسبها،

---

(1) الجاحظ : البيان والتبيين ، 1 / 20 .

ومنزلاً يلائمها ، فإذا نظرنا في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : 28] ، وجدنا كلمة " الغيث " هي المستعملة هنا ، وفي كل مقام يتحدث عن الرحمة وما يتعلق بإنزال الماء النافع من السماء ، والسياق في الآية الكريمة يتحدث عن نعم الله ورحمته بعباده ، ويناسب هذا ذكر ما يغيث الله به عباده من ماء نازل من السماء ، فاستعملت كلمة " الغيث " لما تدل عليه من معنى النجدة والإغاثة التي تناسب لفظة " قنطوا " في الآية ، فإن بين القنوط ونزول الغيث مناسبة حيث إنَّ القنوط يدل على الجوع والفاقة التي يطلب أصحابها الإمداد والعون ، ونزول " الغيث " يدل على حلول الخير والرزق المطلوب .

والقرآن في مقام العذاب والإهلاك يستعمل كلمة " المطر "، قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء : 172 ــ 173] . فكلمة " مطر " جاءت في سياق العذاب لمناسبتها لذلك السياق .

وخلاصة الأمر في هذا المسلك من مسالك التميز أنه راجع إلى فصاحة أبنية كلمات القرآن ، " وعذوبة تركيب أحرفها ، وسلاسة صيغها، وكونها مجانبة للوحشي الغريب ، وبعدها عن الركيك المسترذل، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي﴾ [الشورى : 32] لم يقل

الفلك لما في الجري من الإشارة إلى باهر القدرة ، حيث أجراها بالريح ، وهي أرق الأشياء وألطفها ، فحركت ما هو أثقل الأمور وأعظمها في الجرم ، وقال : ﴿ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم يقل في الطمطام ، ولا في العباب وإن كانت كلها من أسماء البحر ، لكون البحر أسهل وأسلس ، ثم قال : ﴿كَالأَعْلامِ ﴾ ولم يقل كالروابي، ولا كالآكام ، إيثاراً للأخف المتلذ به ، وعدولاً عن الوحشي المسْتَرك"[1].

ويضاف إلى فصاحة أبنية الكلمات وعذوبة تركيب أحرفها وسلاستها أمر آخر أشار إليه الرافعي ، وسماه " روح التركيب " ، ويقصد به أن الكلمة تكتسب خصوصية إذا دخلت في التركيب القرآني " الجملة " ، فترى " للفظ من الألفاظ فيه معنى ؛ ثم ترى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر ، هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها فكأنه كلام مداخلُ وكأن اللغة فيه لغتان " [2].

هكذا يجد المتأمل للجملة القرآنية أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجيباً ، وينبني على ذلك أن الجملة تتركب تركيباً بديعاً لا يمكن أن ينوب عنه أيّ تركيب آخر ليؤدي المعنى المراد المقصود من السياق .

---

(1) العلوي : الطراز ، 3 / 120 ــ 121 .

(2) الرافعي ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى / 1421 هــ = 2000 م ، ص 174 .

وهناك وجه آخر لدقة التعبير في الجملة القرآنية ، حيث تقع الكلمة أو الجملة في موضع يلائمها ويناسبها ، فلا يمكنها أن تتقدم عليه أو تتأخر ، وهذه الخصيصة الثانية التي تميز الجملة القرآنية ، ويمكن أن يسمى هذا النوع خصائص الترتيب ، وهي خصائص تتعلق بالتقديم والتأخير .

- **خصائص الترتيب** :

ولخصائص الترتيب مستويان : مستوى يكون داخل الجملة الواحدة ، ومستوى آخر يكون بين الجمل أي داخل النص ؛ فمن أمثلة المستوى الأول تقدم الخبر على المبتدأ ، والمفعول على الفاعل ، أو تقدم المفعول على الفعل والفاعل ، ونحو ذلك مما هو مدروس في باب التقديم والتأخير في علم المعاني ، ولنسق أمثلةً تُبَيّن هذين المستويين وتكشف عن حقيقتيهما .

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ــ 23] ، فقد تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَى رَبِّهَا ﴾ على المسند إليه ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ ، ورتبة المسند إليه التقديم لأنه المحكوم عليه ، والمسند وما يتعلق به رتبته التأخير لأنه محكوم به [(1)] ، فالترتيب هنا لم

---

(1) ينظر : المراغي : علوم البلاغة ، ص 104 .

يأت وفق العرف الأصل ، وإنما جاء خلاف ذلك لغرض بلاغي ، وسر معنوي يقتضيه المعنى المراد من الجملة القرآنية .

والمعنى المقصود هنا هو إفادة تخصيص النظر من الوجوه إلى الله ، فهذه الوجوه الناضرة لا تنشغل بالنظر إلى ما هو دون ، بل إن نظرها إلى ما هو أعلى درجات النعيم ، وأرقى مراتب السعادة ، هذا هو المعنى المراد الذي استدعى التقديم للجار والمجرور ، ثم إن هذا التقديم استوجب تأخير المسند إليه ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ ، وكان هذا التأخير لغرض بلاغي آخر هو تناسق السجع الموجود في السياق الذي وقعت فيه هذه الجملة القرآنية .

إنَّ الترتيب بين أجزاء الجملة القرآنية لا يأتي كيفما اتفق ، أو للتنوع في طرائق التعبير ، وإنما يأتي لأداء معنى مقصود ، وتحقيق غرض مطلوب ودلالة مرادة ، وكل هذا يحدث بأسلوب بليغ معجز ، يمكن للمتأمل الذي يمعن النظر ، ويعمل التفكير أن يصل إلى سره البلاغي ، وغرضه المعنوي .

وقد رأينا في الجملة الكريمة السابقة أن التقديم والتأخير كان مفيداً من جهة المعنى ، ومفيداً من جهة اللفظ ؛ فأما الفائدة المعنوية فتمثلت في إرادة معنى التخصيص، وأما الفائدة اللفظية فهي المحافظة على الجرس الذي يحدثه السجع في السياق .

وهناك نوع آخر من الترتيب بين أجزاء الجملة القرآنية يفيد زيادة في المعنى فحسب ، وذلك نحو تقديم المفعول به ﴿ اللَّهَ﴾ على الفعل والفاعل في قول الحق ــ جل وعلا ــ : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ [الزمر : 66] ، فتقدم ﴿ اللَّه َ﴾ على الفعل والفاعل أفاد معنى التخصيص ، أي : تخصيص الله بالعبادة دون غيره ، وقصرها عليه دون سواه ، ولو جاءت الجملة على غير هذا الترتيب لما أفادت هذا المعنى .

وتظهر دقة التعبير القرآني في الترتيب بين أجزاء الجملة في كل جمله وآياته لاسيما دقته في أسلوب الاستفهام ، ومثال ذلك ما جاء في قول الحق ــ تعالى ــ : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : 153 ــ 154]، فأما همزة الاستفهام فلها صدر الجملة ، وجاء الفعل " اصطفى " بعد الهمزة مباشرة متقدماً على " البنات " ، وذلك لأن المعنى المقصود هو إنكار حدوث الاصطفاء من أصله ، وتكذيب المشركين الذين ادعوا أن الله اختار الملائكة بنات له ــ تعالى الله عن ذلك ــ ، إن هذا المعنى لا يمكن أن يؤدى بهذه الدقة إذا تغير ترتيب عناصر هذه الجملة ، فتقديم " البنات" ــ على سبيل المثال ــ فيقال : ألبنات اصطفى على البنين ؟ سينتج عنه معنى آخر هو إنكار اصطفاء البنات ، وإنكار اصطفاء البنات لا يعني إنكار اصطفاء البنين ، بل قد يفهم إثبات اصطفاء البنين ، وهذا المعنى غير مقصود لأن الله ــ جل وعلا ــ أراد إنكار حدوث الاصطفاء أصلاً لأنه لم يقع البتة .

ومن مواضع التقديم والتأخير التي تظهر دقة التعبير القرآني تقديم " شاخصة " على " أبصار " في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَـرُوا ﴾ [الأنبيـاء : 97] ، فتقديم هذه الصفة التي هي الشخوص على أبصار يصور للمتلقي أنَّ كل صفة من صفات الأبصار الأخرى كأنها قد انمحت ، ولم يبـق إلا هـذه الصفة ، وهي صفة الانفتاح من غير طرف ، وأفاد هذا المعنى بيان حال هؤلاء الكافرين ، حيث أصابهم الذهول والخوف [1].

ولا تقتصر دقة الترتيب في الجملة القرآنية على الترتيـب بـين المسند والمسند إليه بل قد يكون الترتيب بين المعطوف والمعطوف عليه كما في قولـه ــ تعـالى ــ : ﴿ إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ التَّـوَّابِينَ وَيُحِـبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : 222] ، فتقدم ذكر " التوابين " على المتطهرين لأنَّ التوبة طهارةٌ للباطن ، والطهارة الحسية طهارة ظاهرة ، والطهـارة الباطنة أصل ، وهي مقدمة على الطهارة الظاهرة .

ومن هذا الباب تقديم الشيء لشرف المقدم ، وعلو رتبته ، كتقديم الأمر بطاعة الله على الأمر بطاعـة الرسول ، وتقديم طاعة الرسـول على الأمر بطاعة أولي الأمر؛ قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ

---

(1) ينظر : أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، ص 113 .

آمَنُــوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

وهكذا نرى دقة الجملة القرآنية وخصوصيتها في ترتيب أجزائها؛ فهي تأتي على نسق فني محكم البناء ينم عن بلاغة معجزة ، ويكــشف عن معانٍ بديعة مقصودة .

- **خصائص الذكـر والحذف** :

وكما كان لتركيب الجملة القرآنية خصوصية ، ولترتيب أجزائها تميزٌ وتفرد ، فإن للذكر أو الحذف فيها خــصوصية وتميــزاً كــذلك ، فالجملة القرآنية لا يذكر فيها عنصر أو يحذف إلا بدقة متناهية لتــؤدي الجملة بهذا الذكر أو الحذف المعنى أداءً مؤثراً، وقد أســفرت دراســات الإعجاز البلاغي للقرآن عن هذه الحقيقة وأثبتتها بالشواهد الكثيرة التــي يضيق المقام عن عرضها وسردها ، ويمكن أن يعــرض البحــث هنــا لبعض هذه الشواهد مع تحليلها تحليلاً موجزاً.

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة نجد اسم الإشارة " أولئك " ذكر فــي الجملة الثانية ، وهو تكرار له بعد ذكره في الجملة الأولى ، وفي غيــر القرآن يمكن أن يقال : أولئك على هدى من ربهم وهم المفلحون . مــن غير تكرار لاسم الإشارة ، ولكنَّ هذا التكرار بذكر اسم الإشارة في صدر

الجملة الثانية المستأنفة ينطوي على سر بلاغي لطيف ، وغرض معنوي دقيق لا يظهر إلا بالتأمل والتدبر .

إن الغرض المعنوي الدقيق الذي ينطوي عليه هذا الذكر اللطيف هو إثبات اختصاص المؤمنين بالفلاح واستحقاقهم له ، واستأثارهم به كما كان استئثارهم بالتمكن من الهداية الربانية ، فذكر " أولئـــك " أدى هـــذا المعنى ، ولو لم يذكر وحذف لكان المعنى: أولئك المؤمنون على هـــدى من ربهم آثرهم به ، وخصهم ، وهم موصوفون بالفلاح . فالجملة مـــن غير ذكر اسم الإشارة تثبت اتصاف المؤمنين بالفلاح فحسب ، وكـــونهم موصوفين بالفلاح لا يعني اختصاصهم به ، وقـــصره علـــيهم ، وإنمـــا يحتمل أن يكونوا موصوفين بالفلاح هم وغيرهم.

ومن الجمل القرآنية التي جاء ذكر المسند فيها لغـــرض بلاغـــي جملة ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس : 79] وذلك في ســـياق الآيات التي تعرض إنكـــار الكـــافر للبعـــث ، قـــال الله ــ تعـــالى ــ : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يـــس : 78 ــ 79] ، فقد ذكر المسند الذي هو " يحييها " في جملة جواب الاســـتفهام ، وكثيراً ما يحذف المسند في جواب الاستفهام لأنه معلـــوم مـــن جملـــة الاستفهام ، فيقال في غير القرآن ــ مثلاً ــ من يحيي العظام ؟ فيجاب :

الله . وإذا قارنا بين الجملتين : الجملة القرآنية التي ذكر فيها المسند ، والجملة التي مُثّل بها وقد حذف المسند منها وجدنا فرقاً معنوياً ، فأما الجملة القرآنية فإنها تصلح للرد على من سأل عن محيي العظام إنكاراً لإحيائها ، فحسن أن يذكر المسند " يحيي " للرد على إنكاره ، وتأكيداً لحدوث الإحياء يوم البعث .

وأما الجملة التي مُثل بها فهي تصلح أن تكون جواباً لمن سأل عن محيي العظام جهلاً به ، فيقال له : الله ، فيحسن هنا حذف المسند لعدم تعلق السائل به ، وإنما كان تعلقه بالفاعل " المسند إليه " فيأتي الجواب متضمناً له ، وبهذه المقارنة بين الجملتين يظهر أن الجواب في الجملة الثانية لا يصلح أن يكون مكان جواب الجملة الأولى ، وهذا يكشف دقة التعبير القرآني ، حيث إن ذكر المسند أدى معنى مقصوداً لا يمكن أن يفهم من الجملة إذا حذف المسند منها .

ونجد مثل هذه الدقة المعنوية للذكر في باب الحذف في الجمل القرآنية وباب الحذف باب دقيق عجيب ، قال عنه عبدالقاهر الجرجاني : " هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ،

أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن " [1].

فالحذف في مواضع يكون أفصح من الذكر ، وأكثر فائدة ، وأدقّ تعبيراً ، وأوضح بياناً ، وذلك إذا وقع في مكانه المناسب ، فكما ظهرت للذكر محاسنه ودقائقه في الجمل القرآنية التي مُثِل بها سابقاً فإن للحذف محاسن ودقائق تظهر بتأمل مواضعه في الجمل القرآنية ، فعلى سبيل المثال نجد أن المسند إليه " المبتدأ " قد حذف من جملة ﴿ عَجُوزٌ عَقيمٌ﴾ في الآية القرآنية التي أخبرت عن حال زوج إبراهيم ــ عليه السلام ــ عندما بشرته الملائكة بغلام عليم ، قال الله ــ تعالى : ﴿ . . . وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : 28 ــ 29] ، والتقدير : وقالت : أنا عجوز عقيم .

وكان حذف المبتدأ " أنا " من هذه الجملة القرآنية لأنه معلوم ، وظاهر بالقرائن، " فذكره حينئذ يعد عبثاً في الظاهر " [2] ، فحسن الحذف ليأتي الكلام موجزاً يلائم السياق الذي جاءت فيه هذه الجملة ، إذ إن السياق يظهر فيه الإيجاز ، وتسارع الأحداث بوضوح ، ويمكن أن

---

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 112 .

(2) المراغي : علوم البلاغة ، ص 63 .

ندرك ذلك من تأمل الآيات التي جاءت هذه الجملة في سياقها ، قـال الله ــ تعالى ــ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْـرَمِينَ . إِذْ دَخَلُـوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَـاءَ بِعِجْـلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَـفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَـا وَقَالَـتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : 24 ــ 30] .

فالأفعال المتتالية في الآيات تدل على سرعة الأحداث ، لنتأمل ــ مثلاً ــ : " إذ دخلوا ــ فقالوا ــ قال سلام ــ فراغ ــ فجاء ــ فقربه " ، فقد تتابعت الأفعال وعطف بعضها على بعض بالفاء ليدل ذلـك علـى تعاقب الأحداث وتتابعها ، وهذا التعاقب والتتابع له دلالة معنويـة هـي " السرعة " التي يناسبها الإيجاز .

ومن بليغ الحذف في الجمل القرآنية حذف المسند مـن الجملـة كحذفه من جملـة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّـهِ خُمُـسَهُ ﴾ [الأنفال : 41] . فجملة : فأن لله خمسه . حذف منها الخبر ، والتقدير : فأن لله خمسه واجبٌ ، قال الزمخشري : " كأنه قيل فلابـد مـن ثبـات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث أنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك : ثابت واجب حـق لازم

وما أشبه ذلك كان أقوى لإيجابه من النص على واحد "[1] ، فحذف الخبر هنا " المسند " أفاد " تكاثر المعنى نظراً لكثرة الوجوه التي تصلح لتقدير المحذوف "[2] ، ومثل هذا الحذف يجعل الجملة ذات دلالات معنوية متعددة ، فيكون التعبير عن مجموعة من المعاني بجملة واحدة ، وكل هذه المعاني المحتملة المقدرة مقصودة ، وفي هذا التكاثر المعنوي يكمن سر تأثير هذا الحذف ، وتنطوي فيه المزية .

وبناءً على ما تقدم فإن الحذف في الجملة القرآنية يكسبها خصوصية وتميزاً ، وهذه الخصوصية ، وهذا التميز يرجعان إلى أسرار الحذف التي لا يمكن حصرها لأنها تتعدد بتعدد المقامات ، ومقامات الكلام تفوق الحصر ، وأغراض الكلام تتعدى القصر .

ذلك لأنه لكل مقام مقال ، ومع هذا فإن للحذف ثلاث خصائص عامة تتمثل في : تحقق الإيجاز في الجملة مع ثراء المعنى ، وتحقق قصر الجملة وحفظها من التمدد الثقيل ، وتحقيق الإثارة الحسية والفكرية لدى المتلقي حين يعول عليه في تقدير المحذوف [3].

---

(1) الزمخشري : الكشاف ، 2 / 126 .

(2) محمد أبوموسى : خصائص التراكيب ، ص 215 .

(3) ينظر : المصدر السابق ، ص 213 .

- خصائص التوكيد

قد تأتي الجملة القرآنية خالية من المؤكدات ، وتأتي أحياناً أخرى مؤكدة بمؤكد أو أكثر ، وتأكيد الجملة وعدمه ليس نوعاً من التفنن في طرق التعبير ، وإنما يكون لغرض معنوي ، وسر بلاغي ، وقد بحث علماء البلاغة قضية التوكيد وأسراره عند حديثهم عن " أضرب الخبر "، وسأكتفي هنا بإيراد بعض الجمل القرآنية التي كان توكيدها أو خلوها من التوكيد لغرض من الأغراض البلاغية .

تخلو الجملة القرآنية من التوكيد لأن المخاطب بها خالي الذهن من مضمونها كما في جملة : ﴿ ألم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:1ــ5].

فجملة ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جاءت خطاباً للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللمسلمين الذين آمنوا ، وكان مضمون هذه الجملة هو إثبات تحقق الهداية لمن اتصف بالصفات المذكورة في الجمل السابقة ، ولأن المخاطبين خالو الأذهان من مضمون هذه الجملة جاءت خاليةً من التوكيد وفقاً لمقتضى الظاهر ، إذ لا حاجة للتوكيد في مثل هذه

الحالة، ولو جاءت الجملة هنا مؤكدة لكان التوكيد حينها حشواً لا مبـــرر له، والكلام البليغ لا يحدث فيه مثل هذا الحشو .

وتتضح أهمية التوكيد من عدمه إذا قارنـــا بـــين هـــذه الجملـــة المذكورة آنفاً وبين جملة أخرى هي قول الله ــ تعـــالى : ﴿ إِنَّ الَّـــذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء : 101] . فهـــذه الجملة جاءت مؤكدة بـــ " إن " ، وذلك لأن المخاطبين بها يشكون فـــي مضمونها ويترددون في قبوله فحسن مجيئ الجملة مؤكدة لتثبيـــت هـــذا المضمون في نفوسهم ليزول شكهم ، وبيان ذلك أنه لما نزل قول الله ـــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَـــصَبُ جَهَـــنَّمَ أَنْـــتُمْ لَهَـــا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] . شق على الكفار من قريش هذا ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأتوا ابن الزبعرى وأخبروه ، فقال : لو حـــضرته لـــرددت عليه . قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له : هـــذا المـــسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيراً أفهما من حصب جهـــنم ؟ فعجبـــت قريش من مقالته ، ورأوا أن محمداً قد خُصِمَ ؛ فأنزل الله تعـــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (1).

هذا هو سبب نزول الآية الكريمة ، وهو يبين أن الخطـــاب بهـــا موجه إلى الكفار من قريش ، وأنهم دَاخَلَ نفوسَهم شيءٌ مـــن تـــصديق

---

(1) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 11 / 343 .

مضمون الآية ، ولكن ردّ ابن الزبعرى أعاد إلى نفوسهم الـــشك ، فهـــم مترددون في قبول الحكم ، ومثل هذه الحالة ــ التي هي الشك والتردد ــ تحتاج إلى كلام مؤكد ليزيل الشك والتردد من نفوســـهم ، فأكـــد لهـــم ، وأُخبِروا بأن آلهتهم المعبودة من دون الله التي هي الأصنام ستكون معهم في جهنم ، أما الذين سبقت لهم من الله الحسنى كعيسى وعزير ، فـــإنهم مبعدون عن نار جهنم .

إن المقارنة بين هاتين الجملتين التين ذكرتا آنفاً يظهـــر أهميـــة التوكيد في بعض الحالات ؛ حيث خلت الجملة الأولى من التوكيد وكـــان المخاطب بها خالي الذهن ، وأكدت الجملة الثانية بمؤكد والمخاطب بهـــا شاك متردد ، وتحسن زيادة التوكيد إن كان المخاطب منكراً جاحـــــداً ، وذلك كما في جملـــة: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل :65]، فالخطاب في هذه الجملة موجه إلى الكافرين الذين لم يؤمنوا بوحدانية الله ــ جل وعلا ــ وأنكروا الأدلة الواضحة التي جاءت بها آيات القـــرآن ، وهـــي تلفـــت أنظارهم إلى مخلوقات الله[1]، ومن أجل إنكـــارهم هـــذا أكدت الجملة بمؤكدين هما: " إن" ، و "اللام".

وخلاصة الأمر أنَّ التوكيد في الجملة يـــأتي لغـــرض بلاغـــي ، ويكون حسناً إذا كان الخطاب موجهاً لشاكٍ أو منكر جاحد ، أمّـــا غيـــر

---

(1) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 14 / 198 .

المنكر وغير الشاك إذا كان خالي الذهن فإن الجملة تلقى إليه خالية مــن التوكيد ، وهذا الذي قرره علماء المعاني ، في حالــة مجــيء الجملــة الخبرية على مقتضى الظاهر ، بيد أن أغراض الكلام ودواعيه قد تجعل الكلام يخرج عن مقتضى هذا الظاهر ؛ فيحسن ترك التوكيد مع تحقــق الإنكار أو يحسن التوكيد مع عدم الإنكار ويحدث ذلك لتحقــق الجملــة غرضاً بلاغياً ما .

المبحث الثالث

بلاغة الـجملة الـقـرآنية الخبرية

المبحث الثالث

بلاغة الـجملة الـقـرآنية الخبرية

- **أسلوب الجملة القرآنية** :

قسم علماء العربية الجمل إلى أقسام كثيرة باعتبـارات متعـددة، فهي تنقسم باعتبار معيار البساطة والتركيب إلى : جملة بسيطة ومركبة، وباعتبار معيار الحجم إلى : كبرى وصغرى ، وباعتبار معيار التركيب الداخلي إلى : فعلية ، واسمية ، وشرطية ، وظرفية، وباعتبـار معيـار الموقع الإعرابي تنقسم إلى قسمين: جمل لا محل لها مـن الإعـراب ، وجمل لها محل إعرابيّ . وأمّا أقسامها من حيث الدلالة العامة "الأسلوب" فقسمان : جملة خبرية وإنشائية .

والقصد ــ هنا ــ بحث الجملة القرآنية من حيث دلالتها العامة ، والحيثية التي عني بها البلاغيون ، فجعلـوا الجملـة العربيـة خبريـة وإنشائية، فإن دلّت الجملة على مضمون يحتمل التـصديق أو التكـذيب كانت جملة خبرية ، وإن كان مضمونها لا يحتمل التصديق أو التكـذيب كانت جملة إنشائية .

وبناءً على ذلك فإن الجملة القرآنية إمّا أن تكون خبرية ، وإما أن تكون إنشائية ، وفيما يأتي بيان هذين النوعين وبلاغتهما .

بلاغة الجملة القرآنية الخبريــة

يعرف علماء البلاغة الخبر بأنه : الكلام الذي يحتمل التصديق أو التكذيب لذاته ، ومعنى قولهم " الكلام " هو كونه مفيــداً فائــدة يحــسن السكوت عليها ، واحتماله للتصديق أو التكذيب يستلزم أن يكون له نسبة في الخارج ــ أعني خارج الكلام أي في الواقع ــ فإن كان الكلام مطابقاً للواقع صُدِّق ، وإن لم يكن يطابقه كُذِّب سواء أكان ذلك المضمون فــي واقع محسوس أم معقول ، وذلك نحو قولنا :

1 ــ خالد حاضر .

2 ــ في الجنة أنهار جارية .

3 ــ سينتصر الحق .

فكل جملة من هذه الجمل تحمل مضموناً مفيداً يمكن أن يصدق أو يكذب بغض النظر عن مصدر الكلام .

- **أغراض الخبر** :

لاشك أن المتكلم بالخبر يهدف من وراء خبره إفــادة المخاطــب أمراً ما ، وهذا الأمر هو غرضه من إلقاء الخبر ، وإذا تأملنا الأخبــار فإننا نجد أنَّها تلقى لغرضين رئيسين هما :

1 ــ إفادة المخاطب مضموناً يعتقد المتكلم أن المخاطــب لا يعلمــه ، وهذا الغرض يعرف بــ " فائدة الخبر " . وذلــك نحــو : جــاء الأستاذ ، زيد حاضر .

2 ــ إفادة المخاطب أنَّ المتكلم عالم بمضمون الخبر ، ويعرف هذا بــ " لازم الفائدة " ومثاله قولنا : سافر أبوك ، أنت صادق الحديث .

وسنعرض هنا جملاً قرآنية خبرية جاء الخبر فيها لأحــد هــذين الغرضين :

1 ـ **فائدة الخبر** :

يظهر هذا الغرض واضحاً في الأخبار التي شــرع الله ــ جــل جلاله ــ فيها أحكاماً ، أو أخبر فيها بأمور غيبية ، ونحو ذلك من الأمور التي لا يعلمها المقصودون بالخطاب ، ومن ذلك قوله ــ جل وعلا ــ :

1 ــ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران : 18] .

2 ــ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : 1] .

3 ــ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : 39] .

4 ــ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : 1] .

5 ــ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 54 ــ 55] .

ففي هذه الجمل القرآنية أخبار الغرض منها إفادة المخاطبين مضمون الخبر، فالآية الأولى يخبر الحقَّ ــ جلّ شأنه ــ أنه بيّن وأعلم الخلق جميعاً أنه لا إله إلا هو ، أي : واحد لا معبود غيره ولا شريك له، وبهذا شهدت الملائكة وأهل العلم من المؤمنين وأعلموا غيرهم [1] ، وواضح أن مضمون هذا الخبر غير معلوم عند المؤمنين المخاطبين ، والغرض إعلامهم وإفادتهم هذا المضمون .

وكذلك الأمر في الآية الثانية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ففيها إخبار بمضمون مفيد لم يكن معلوماً عند الناس قبل نزول هذه الآية ، فالغرض إذاً إفادة المخاطبين تحقق فلاح المؤمنين وثبوت ذلك لهم .

أما قوله ــ تعالى ــ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا .... ﴾ فإن المؤمنين كانوا قد نهاهم الله عن القتال ، ولم يأذن لهم بالمقاتلة ،

---

(1) ينظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، 4 / 40 وما بعدها .

فجاءت هذه الجملة القرآنية لبيان حكم جديد ، وإفادة مضمون غير معلوم من قبل ، هو إباحة القتال : قتال الظالمين المشركين .

2ـ **لازم الفائـــدة** :

ذكرنا أن هذا الغرض يكون المتكلم فيـــه يرمـــي إلـــى إعـــلام المخاطب أنه عالم بمضمون الخبر ، ومن ذلك قول الله ــ تعالى ــ :

1 ــ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَـــائِلِينَ لِـــإِخْوَانِهِمْ هَلُـــمَّ إِلَيْنَـــا﴾ [الأحزاب : 18].

2 ــ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء : 65] .

3 ــ ﴿ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف : 90] .

ففي قوله ــ تعالى ــ : ﴿قَدْ يَعلمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ ..... ﴾ خطـــاب للمنافقين الذين يصدون الناس عن النبي ــ صـــلى الله عليـــه وســـلم ــ ويصرفونهم عنه ويثبطون هممهم حتى لا يقاتلوا الأحزاب ... ، فقد ظنَّ هؤلاء المنافقون أنَّ الله لا يعلم حقيقة حالهم وفعلهم ، فـــأخبرهم ــ جـــل وعلا ــ أنه عالم بهم مطلع على سرّهم إذ تسللوا متسترين [1].

---

(1) ينظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، 14 / 15 وما بعدها ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير، 10 / 40 .

يتبين لنا مما سبق أن الخبر يأتي لغرضين رئيسين هما : فائـــدة الخبر أو لازم الفائدة ، فإذا جاء لغير هذين الغرضين فـــإنَّ البلاغيـــين يعدُّون ذلك مجالاً للبحث البلاغي ، إذ إنَّ كون الخبر ألقـــي للإفـــادة أو لازمها أمر معلوم يعرفه الخاص والعام ، لهذا عني البلاغيون بأغراض الخبر الأخرى التي تصدر عن مراعاة المتكلم لمقتضى الحال .

- أغراض الخبر الفرعية

إنَّ التعبير البديع الذي يرتفع في درجات البلاغة العليا هو ذلـــك التعبير الذي يجعل من اللغة برحابة مجالها ميداناً لـــه ، ويـــستثمر كـــل طاقاتها وإمكاناتها مدفوعاً بما تثيره نفسه من أحاسيس ، وما يجيش فيها من عواطف ، وما يصنعه العقل من عالم رحب واسع ، وهذا هو الإبداع الذي يخرج عن دائرة المبتذل ، ويرنوا إلى الدرجة الأجل .

وقد نبه البلاغيون إلى ذلك ، قال التفتازاني : " كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخرى سوى إفادة الحكم أو لازمة ، كقولـــه ــ تعـــالى ــ حكاية عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ إظهاراً للتحسر على خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، والتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقـــدر

أن تلد ذكراً ... "[1] . ونحن نذكر بعض هذه الأغراض مستشهدين عليها بجمل القرآن .

1 ــ إظهار الضعف :

يأتي الخبر لإظهار الضعف والتخشع كما في حكاية قول زكريا ــ عليه السلام ــ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم : 4] .

وقد ناسب هذا الغرض حال زكريا ــ عليه السلام ــ فهو في حالة تضرع ودعاء ، يرجو عطاء الله ، ويطمع في رحمته ، و من المناسب أن يظهر ضعفه وفقره إلى مولاه ــ جل وعلا ــ ليكون دعاؤه دعاء مضطر ، وطلبه طلب راغب، وهذا أليق بالمقام ، وأدعى للإجابة .

2 ــ الاسترحام والاستعطاف :

أي طلب الرحمة والعطف ، ومنه خبر موسى ــ عليه السلام ــ إذ قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] ، فهو يطلب من الله ــ جل وعلا ــ مزيد رحمة مع ما أعطاه ، ويطمع في كرمه مع ما أولاه، فقدم الخبر مطابقاً لحاله ، إذ كان غريباً عن بلده ، طريداً وجلاً ، خائفاً من كيد الظالم فرعون ، فما أحوجه في هذا المقام إلى رحمة ربه ، وما أفقره إلى كرم سيده .

---

(1) التفتازاني ، سعد الدين . عن حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ، حسن بن محمد العطار .

3 ــ الحث على التفكر :

قال الله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : 190] .

ففي الإخبار بوجود آيات دالة ، وعلامات واضحة في السموات والأرض ، كلها تدل على وجود الخالق الحق ، وتثبت وحدانيته ، وتُقِرُّ بعظمته ــ في هذا حث للعقول على التفكير ، ودعوة للأبصار إلى التأمل في ملكوت الله .

4 ــ الترغيب في الفعل :

يلقى الخبر والغرض منه الترغيب إذا كان المرغب فيه أمراً ذا شأن ، كالتوبة والجهاد ونحو ذلك ، فمن ذلك ، قول الله ــ تعالى ــ مخاطباً بني إسرائيل : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 54] .

فالمخاطبون قد علموا أنَّ الله تواب رحيم لأنه قد قبل توبتهم وأخبرهم بهذا ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ لكنه ــ جل وعلا ــ قال بعد ذلك ــ : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فكان الخبر لترغيبهم في التوبة ، وتحبيبهم في الإنابة ، فالقصد منه ترغيب العبد في التوبة ، فإذا علم ذلك طمع في عفوه ، لذلك أكد ب " إنَّ " وضمير الفصل والمبالغتين مع الصفتين له ".

- **أضرب الخبر** :

لمّا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فــإن المــتكلم البليغ يراعي في خطابه حال المخاطب، ويلقي إليه الكلام مناسباً لحالته ، ونحن إذا نظرنا إلى أحوال المخاطب الرئيسة وجدناها ثلاثة أحوال: فإما أن يكون خالي الذهن من مضمون الخبر الملقى إليه، وإما أن يكون شاكاً متردداً في قبول مضمونه ، أو منكراً جاحداً له. وبناءً على ذلــك قــسم علماء البلاغة أضرب الخبر إلى أقسام ثلاثة هي : ابتــدائي، وطلبــي ، وإنكاري .

1 ــ **الخبر الابتدائي** : هو الخبر الذي يلقى لشخص خالي الذهن مــن مضمون الخبر ، وفي هذه الحالة فإن الخبر يلقــى خاليــاً مــن المؤكدات ، لأن الذهن الخالي يتمكن فيه الكلام من غير حاجــة إلى توكيد. ومثال ذلك :

1 ــ جاء خالد وغاب سعد .

2 ــ أحمد مبدع وزيد مجتهد .

فهذه الجمل يخاطب بها شخص لا علم له بمجيء خالد ، وغياب سعد ، ولا دراية له بإبداع أحمد واجتهاد زيد ، أي : إنه خالي الذهن من الحكم الذي تضمنته هذه الأخبار .

2 ــ **الخبر الطلبي** : وهو الخبر الذي يلقى لشخص له دراية بمضمون الخبر ، لكنه يشك فيه ، ويتردد في قبوله وتصديقه . وفي هــذه الحالة ينبغي أن يلقى الخبر مؤكداً بمؤكــد واحــد حتــى يقبلــه المخاطب ويزول شكه وتردده ، وذلك مثل :

1 ــ قد انتصر الباطل .

2 ــ إن الصدق منجاة .

ويخاطب بهذه الجمل من يشك في انتصار الباطل ، ويتردد فــي تصديق كون الصدق سبب النجاة ، ومن أجل ذلك جاءت هــذه الأخبــار مؤكدة بأدوات التوكيد ، فكان الخبر الأول مؤكداً بــ " قــد " ، والثــاني مؤكداً بــ " إن " .

3 ــ **الخبر الإنكاري** : وهذا النوع من الأخبار يخاطب به مــن يعلــم مضمون الخبر من قبل لكنه غير مصدق به وينكره . وفي هــذه الحالة يجب أن يلقى الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد كي يدفع المتكلم تكذيب المخاطب وإنكاره . ومثال ذلــك خطابــك لكــافر ينكــر البعــث والحساب فتقول له :

1 ــ إن البعث لحق .

2 ــ ليحاسبنَّ الله الناس يوم القيامة.

فقد جاء الخبر في الجملة الأولى مؤكداً بمؤكدين هما : إن واللام الداخلة على الخبر لتواجه إنكار المنكرين ، وتزيل جحودهم . كما أكـد الخبر في الجملة الثانية بمؤكدين : اللام ونون التوكيد .

وبعد ما بينا أضرب الخبر الرئيسة عند علماء البلاغة العربيـة ، نستعرض الآن مجموعة من الجمل القرآنية التي جاءت مناسـبة لهـذه الأضرب .

1 ــ الخبــر الابتــدائي :

عرفنا أن الخبر الابتدائي هو ما يخاطب به شخص خالي الـذهن من مضمون الخبر ، فيأتي خالياً من المؤكدات ، نحو جملة ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ من قول الله ــ تعالى ــ : ﴿الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِـن رَبِّهِـمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : 2 ــ 5] . فقد جاءت جملة ﴿ أُولَئِـكَ عَلَى هُدًى ﴾ خالية من مؤكدات الخبر لأن المخاطبين بها هم المؤمنون ، وقد كانت أذهانهم خالية من هذا المضمون قبل سماعه .

ومن أمثلـة هـذا الـضرب كـذلك قـول الله ــ تعـالى ــ : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَـا هُـمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ [آل عمـران : 170 ــ

171] ، فجملة (يستبشرون بنعمة من الله) تخبر المؤمنين الأحيــاء أنّ الشهداء يُسرّون ويفرحون بمعرفة الله وإكرامه لهم بالجنــة ، والنعــيم ، والفضل العظيم[1] . وقد جاءت هذه الجملــة خاليــة مــن التوكيــد لأن المخاطبين بها هم المؤمنون ، وهم لا يعلمون هذا الأمر إذ هــو غيــب أطلعهم الله عليه .

ومن شواهد الخبر الابتدائي :

1 ــ ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّــمَ اللَّــهُ ﴾ [البقرة : 233] .

2 ــ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ [آل عمران : 96 ــ 97] .

3 ــ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 49] .

4 ــ ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ [النساء : 27 ــ 28] .

---

(1) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 4 / 275 .

5 ـــ ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 42] .

2ـ الخبر الطلبي :

وهو ـــ كما عرفنا ـــ ما كان المخاطب به متردداً شاكاً في مضمون الخبر ، فيأتي الخبر مؤكداً بمؤكد واحد ، وذلك نحو جملة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة : 60] . فقد جاءت رداً على طائفة من المنافقين الذين لمزوا النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عندما أعطى الصدقات لأصناف محددة ولم يعطهم منها ، فجاء الخبر من الله ـــ جل وعلا ـــ مؤكداً بـ " إنما " ليدفع شكّهم ، ويبطل سوء ظنّهم .

ويظهر ذلك من السياق الذي جاءت فيه هذه الجملة الكريمة ، قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ . إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة 58 ـــ 60] . فقد جاءت جملة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ رداً على لمز اللامزين ، وعيب العائبين المنافقين فحسن توكيدها لأنهم أهل شك وريبة .

ومن الجمل التي جاء خبرها طلبياً جملة ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آَيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ . . . ﴾ [آل عمران : 12 ــ 13] .

فقد أكدت الجملة الخبرية بحرف التوكيد " قد " ، وهو حرف " إذا دخل على الماضي أو المضارع فلا بد فيه من معنى التحقيق ، ثم إنه يضاف في بعض المواضع إلى هذا المعنى في الماضي : التقريب من الحال مع التوقع " [1]، والمقصود بالتحقيق هنا التوكيد ، أي : تحقيق حدوث الفعل الذي تؤكده ، وتفيد بالإضافة إلى التوكيد تقريب الحدث هنا، فإنها بدخولها أفادت أن الآية والعلامة الدالة كانت قريبة .

والمقصود بالآية ما حدث في يوم بدر عندما انتصر المسلمون على المشركين ، وكان نزول هذه الآية بعد غزوة بدر بعدما رجع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه إلى المدينة[2] ، فالزمن بين الأمرين قريب ، ولم تفد " قد " التوقع في هذه الآية ، بل أفادت تحقق الوقوع .

وبناءً على ذلك فإن مضمون هذه الجملة هو : أيها الكافرون إن ما وقع في يوم بدر دليل على أن الله الذي نصر الفئة القليلة وأيدهم بنصره وهزم عدوهم ــ قادر على أن يعيد الكرة مرة أخرى فهذا الذي

---

(1) الرضي : شرح الرضي على الكافية ، 2 / 223 .

(2) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 4 / 24 .

حدث عبرة وعظة لكل من يفكر في مناوأة المسلمين ، أو مقاتلتهم ، فإن مصيره سيكون الهزيمة كما كان مصير المشركين في بدر مـع كثـرة عددهم وعدتهم ، وقد جاء التوكيد بـ " قد " ليزيل ريبة من يشك في هذه الحقيقة ، أو يتردد في قبولها .

ومن الجمل التي جاء الخبر فيها طلبياً :

1 ــ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14] .

2 ــ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: 10 ــ 14] .

3 ــ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 8 ــ 9] .

3ـ **الخبر الإنكاري** :

ويخاطب بالخبر الإنكاري شخص منكرٌ لمضمون الخبر ، فيأتي الخبر مؤكداً بمؤكدين أو أكثر على قدر إنكاره وجحوده ، وذلك كما في جملة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل : 65] .

فالخطاب في الآية الكريمة موجه إلى الكافرين الذين لم يؤمنوا بوحدانية الله ــ جل وعلا ــ وينكرون الأدلة التي ساقتها الآيات السابقة[1]، فألقى الخبر إليهم مؤكداً بـ " إنَّ " و " اللام " .

وحسن توكيد هذه الجملة بـ " إن " لأنها تفيد التوكيد الذي يدفع الإنكار . ولعل إيراد الآية في سياقها يكشف لنا عن دقة تعبيرها ، وجمال أسلوبها الذي ناسب المقام ، فكان الكلام مطابقاً لمقتضى الحال . قال الله ــ جل وعلا ــ : ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

ففي هذه الجملة تقدم الخبر وهو شبه جملة (في ذلك) ليفيد تقوية الحكم المشار إليه بـ " ذلك " وفي ذلك مزيد توكيد للجملة ؛ حيث إن المشار إليه علامة واضحة ودليل جلي على وجود الله ووحدانيته ، فمن يسمع مضمون الكلام السابق سماع تأمل واتعاظ يكون ذلك آية له وعلامة تجعله يؤمن بالله ؛ فإن إحياء الله للأرض الميتة بالماء النازل من السماء علامة واضحة للعيان وهي تشبه إحياء القلوب بالإيمان إذا نزل عليها نور القرآن ــ وهي آية خفية ــ وهذا المعنى الواضح للعيان علامة ظاهرة على صدق قضية التوحيد والإيمان .

---

(1) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 14 / 198 .

ومن شواهد الخبر الإنكاري :

1 ــ ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه : 47 ــ 48] .

2 ــ ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 6] .

- **خروج الخبر عن مقتضى الظاهر** :

تبين مما سبق أن الخبر يراعى فيه حال المخاطب ، فيلقى إليه الكلام خالياً من التوكيد إذا كان خالي الذهن ، ويؤكد بمؤكد واحد إذا كان شاكاً متردداً ، بينما يلقى إليه الكلام مؤكداً بأكثر من مؤكد إذا كان منكراً جاحداً ، وهذه الحالات الثلاث يكون الكلام فيها موافقاً للظاهر ، ولكنّ المتكلم قد يعرض له داع من الدواعي فيخرج الكلام على غير الأسلوب الظاهر ، وهذا ما يسميه البلاغيون خروج الخبر عن مقتضى الظاهر .

ولخروج الخبر عن مقتضى الظاهر حالات كثيرة ؛ تتعدد بتعدد رؤية المتكلم ، وتتنوع بتنوع الداعي الدافع إلى الكلام ، من ذلك أن يعامل خالي الذهن معاملة الشاك المتردد إن ظهرت على المخاطب أمارات الشك أو ظن المتكلم عدم قبوله مضمون الخبر ، وقد يعامل الشاك المتردد معاملة خالي الذهن لأجل تجاهل شكه وتردده ، أو يعامل

المنكر معاملة غير المنكر فلا يؤكد الخبر ، وقد يأتي الكلام موجهاً للغافل عن الحقيقة الماثلة أمام عينيه . فيؤكد الكلام له تنزيلاً له منزلة الشاك أو المنكر ونحو ذلك من المقتضيات .

وربما جاء الكلام مؤكداً وخوطب به غير الشاك أو غير المنكر ، وكان سبب توكيده تقوية مضمون الخبر إشارة إلى أهميته ، أو لتقرير حقيقة ما وتثبيتها في نفس المخاطب ، وقد يكون التوكيد راجعاً إلى غرابة الخبر أو رغبة المتكلم في إظهار معتقد نفسه[1] .

وفيما يأتي بيان بعض حالات خروج الخبر عن مقتضى الظاهر ، مع ذكر شواهده القرآنية وتحليل نماذج منها :

أ ـ تنزيل السائل منزلة الشاك المتردد :

وينزل السائل منزلة الشاك المتردد إذا كان الكلام السابق متضمناً لإشارات أو إيماءات تثير في نفس المتلقي تساؤلاً ، فيأتي الكلام مؤكداً ليزيل التردد ، ويجيب عن هذا الهمس الذي في نفسه وقد يكون ذلك بعد الأمر أو النهي ونحو ذلك[2] ، ومثال ذلك جملة ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ بعد جملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾في قول الله ــ تعالى ــ :

---

(1) ينظر : محمد أبوموسى : خصائص التراكيب ، ص 53 وما بعدها .

(2) ينظر : المصدر السابق ، ص 51 .

﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾[البقرة : 167] .

فجملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تثير في النفس تساؤلاً : لِمَ كان الشيطان عدواً ؟ فيأتي الجواب بذكر السبب ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ ، وأكد الاستئناف بـ " إنما " ليجيب عن همس النفس ، وأفادت " إنّ " مع التوكيد التعليل ، أي : ذكر سبب كون الشيطان عدواً مبيناً [1].

فجملة ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سبب لجملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وتعد هذه الجملة الخبرية من الاستئناف البياني لأنه جواب سؤال مقدر توحي به الجملة السابقة كما بينا .

ومن شواهد تنزيل السائل منزلة الشاك المتردد :

1 ــ ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف : 53] .

2 ــ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : 30] .

---

(1) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 2 / 104 .

3 ـــ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل : 98 ـــ 100] .

ب ـ تنزيل الغافل منزلة خالي الذهن :

وذلك لتنبيه الغافل إلى أن غفلته لا ينبغي أن تكون ، أو لوضوح المضمون الذي يحمله الخبر ، أو لأن المتكلم يعلم أن خبره لا ينكر ، ومن ذلك قول الله ـــ جل وعلا ـــ :

1 ـــ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ [النحل : 10]

2 ـــ ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ [الفرقان : 53].

ففي الآية الأولى جاءت جملة ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ خبراً لبيان قسم من أقسام الماء [1]، فبعدما ذكر ـــ جل وعلا ـــ نعمة إنزال الماء من السماء ، جاءت الجمل التالية لبيان أقسام الماء وفائدة كل قسم ؛ فمن الماء ما يشرب ، ومنه ما ينبت به الشجر ، ومنه ما ينبت به الزرع ، وكانت هذه الجملة لبيان ما يشرب من الماء وهي نعمة من نعم الله الكبرى على الإنسان ، فحسن مجيء ذكرها مستأنفة للتنويه بعظمة هذه النعمة وأهميتها.

---

(1) ينظر : الألوسي ، شهاب الدين محمود : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، من غير تاريخ ، 14 / 105 ، وأبوحيان الأندلسي : البحر المحيط ، 14 / 478 .

ونرى جملة ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ خالية من التوكيد ، والمخاطبون بها هم الغافلون عن هذه النعمة المذكورة ، ومقتضى الظــاهر أن تــأتي مؤكدة لأن الغافل في حكم الشاك أحياناً أو هو في مرتبته ، إلا أن الجملة لم تؤكد تنزيلاً للمخاطب الغافل منزلة خالي الذهن ، وذلك لأن هذه الغفلة لا ينبغي لها أن تكون ؛ إذ كيف يغفل الإنسان عن نعمة من نعم الله هي عماد حياته ، وسر بقائه ، فمثل هذه الغفلة غير مبررة ، وبناء على ذلك فإن الغافل عنها نُزّل منزلة خالي الذهن الجاهل بمضمون الخبــر ، لأن نتيجة الجهل بالأمر والغفلة عنه سواء .

جـ- تنزيل الغافل منزلة الشاك المتردد :

وينزل الغافل منزلة الشاك المتردد تعريضاً به وبــشدة غفلتــه ، وإشارة إلى استحكامها عند المخاطب حتى صار كالشاك ، علــى الرغم من وضوح الكلام وحجته ، وكونه كالمسلّم بــه الــذي لا يختلف عليه العقلاء ، ومن ذلك قــول الله ــ تعــالى ــ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُــدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لَخَلْــقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 56 ــ 57] .

فجملة ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ﴾ خطابٌ للكافرين الذين جادلوا في آيات الله ، وما جادلوا فيه البعث بعد المــوت فجــاءت هــذه

الجملة حجةً دامغة لهم ، مبينة أن بعث الناس أمر يسير على الله الـــذي خلق ما هو أكبر وأعظم ، فالله قد خلق السموات والأرض وهما أعظـــم خلقاً من الإنسان فهو ــ جل وعلا ــ قادر على خلق الإنسان الذي هـــو أقل عظمة منهما ، وإذا ثبت هذا فإن القدرة على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته أيسر وأهون[1].

وجاءت الآية الكريمة لبيان هذا الأمر بطريقة غير مباشرة كمـــا يظهر من سياق الآيات الكريمة ، فالكافرون لا ينكرون أن الله قد خلـــق السموات والأرض وهم يقرون بذلك كما جاء في آية أخـــرى : ﴿وَلَـــئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان : 25] فهـــم يعترفون بهذه الحقيقة ولكنهم غفلوا عن قياس قدرة الخالق للسموات على خلق الإنسان وبعثه ولو فعلوا لما أنكروا البعث ، ولما كانت غفلتهم عن هذه الحقيقة غفلة كبيرة خوطبوا مخاطبة الشاك المتردد في حقيقة عظـــم خلق السماوات والأرض فجاء الكلام مؤكداً بـــ " لام " الابتداء .

د ـ تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن :

وإنما ينزل المنكر منزلة خالي الذهن إشارة إلى عـــدم الاعتـــداد بإنكاره ، ولكون الكلام حقيقة لا تحتاج إلى توكيد ، فيأتي الخبر هادئاً ينم عن ثقة المتكلم في صدق كلامه ، ومن ذلك قول الحق ــ تعالى ــ :

---

(1) ينظر : الزمخشري : الكشاف ، 3 / 433 .

1 ــ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ [الأعراف : 40 ــ 41] .

2 ــ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

ففي الآية الثانية جملة : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ خطاب موجه للمشركين عبدة الأصنام(1) ، الذين ينكرون يوم القيامة وما فيه من جنة ونار، وينكرون أن مآلهم إلى النار لأنهم أشركوا ، ولم يأتِ الخطاب الخبري لهم على ظاهره إذ إن الظاهر يقتضي أن يؤكد لهم الخبر بأكثر من مؤكد ، ولكنه جاء خالياً من أدوات التوكيد تنزيلاً لهؤلاء المنكرين منزلة خالي الذهن الذي لا يحتاج إلى تأكيد الكلام له .

والسبب في ترك تأكيد هذه الجملة ــ والله أعلم ــ هو إهمال إنكار هؤلاء المنكرين ، وعدم الالتفات إليه لأنه إنكار لِمَا لا علم لهم به ، ولهذا الأسلوب " أثره الغالب في النفس حين تجد الكلام الذي يواجه الرفض والجحود خالياً من الاحتفال والتوكيد خافت النبرة هامساً بالحقيقة

(1) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 11 / 344 .

في غير جلجلة وضجيج "[1] ، فيقع في النفس فتبهــت ، ويــسري فيهــا سريان النار في الهشيم .

هـ ـ تنزيل المنكر منزلة الشاك المتردد :

وينزل المنكر منزلة الشاك المتردد فيؤكد له الخبر بمؤكد واحد ، وجَعْــل المنكر كالشاك يكون لغرض بلاغي كأن يكون إنكاره ضعيفاً ، أو شبهة إنكاره واهية ، فيخاطب بأسلوب أدنى درجة من الأسلوب الذي يخاطب به المنكر للتقليل من شأن إنكاره ، أو للحد منه ، أو لأن المتكلم يريد أن ينبه المخاطب إلى ضعف ذلك الإنكار ، ومن ذلك قــول الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ ألر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَــاهُ قُرْآَنًــا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف ــ 2] .

ففي هذه الآية جاءت جملة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّــا لَعَلَّكُــمْ تَعْقِلُونَ ﴾ مؤكدة بـــ " إن " والتأكيد متوجه إلى خبرها وهو " أنزلناه " ، وذلك للرد على الذين أنكروا أن يكون القرآن منزلاً مــن عنــد الله [2]، فالخطاب إذاً موجه للمنكرين ، وكان مقتضى الظاهر أن يؤكد بأكثر من مؤكد لكنه أكد بمؤكد واحد تنزيلاً للمنكرين منزلة من يشك في الخبــر ، ويتردد في قبول مضمونه ، وسبب ذلك ــ والله أعلم ــ أنّ شبهة هؤلاء

---

(1) محمد أبوموسى : خصائص التراكيب ، ص 54 .

(2) ينظر : المصدر السابق ، 12 / 201 .

المنكرين واهية ، وحجتهم داحضة إذ قالوا : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : 91] .

فإنكارهم إنزال الله كتاباً على بشرٍ رسولٍ لا يصمد أمام الحق ، فقد أنزل الله قبل القرآن التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام ، والعرب المنكرون يعلمون ذلك ، ويتعاملون مع أهل الكتاب ، وربما ذهبوا إليهم ليسمعوا منهم ويسألوهم عن بعض الأمور الدينية ، فلما كان إنكارهم هذا ضعيفاً بقرائن الحال فهو إلى الشك أقرب، لذا نُزِّل هؤلاء المنكرون منزلة المرتابين الشاكين فاكتفى في تأكيد الخبر بمؤكد واحد .

و- تنزيل غير المنكر منزلة المنكر :

وينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهرت للمتكلم أمارة من أمارات الإنكار ، فيأتي الخبر مؤكداً ، كجملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ من قول الله ـ جل وعلا ـ : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان : 26] .

فهذه الآية المخاطب بها جميع الخلق وهم غير منكرين لمضمون الخبر لأن أحداً لم يدّعِ ملك ما في السموات والأرض فثبت ملكها لله الذي أخبر بذلك ، فكان الخبر من غير تأكيد ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لكن هذا الخبر قد يولد في النفس الكافرة ريبة أو شكاً في

حكمة اختصاص الله ــ جلَّ وعلا ــ بملك ما في السموات والأرض فتظنّ أنه محتاج إلى ما في السموات والأرض ومفتقرٌ إليه ، لذا جاء الخبر في الجملة التالية ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ مؤكداً بـ " إن " وضمير الفصل " هو " وذلك ليقطع مثل هذا الريب والشك الذي قد يتحول إلى إنكار وجحود .

وهذا ما عبر عنه العلامة الألوسي عندما قال : " وكأن الجملة جواب عما يوشك أن يخطر ببعض الأذهان السقيمة من أنه هل اختصاص ما في السموات والأرض به عزَ وجل لحاجته سبحانه إليه ، وهو بنفي الحاجة على أبلغ وجه ، فقد كان يكفي في الجواب : إن الله غني ، إلا أنه جيء بالجملة متضمنة للحصر وللمبالغة ، وجيء بالحميد أيضاً تأكيداً لما تفيده من نفي الحاجة بالإشارة إلى أنه تعالى منعم على من سواه سبحانه أو متصف بسائر صفات الكمال فتأمل جداً " [1].

ز ـ تقوية مضمون الخبر :

وقد يأتي الخبر مؤكداً والمخاطب به غير شاك في مضمونه وغير منكر له ، وإنما غرض التوكيد تقوية المضمون لأهميته ، أو لأجل الاعتناء به ، والذي يراعى حينئذ ليس هو حال المخاطب ، وإنما يراعى حال الخطاب نفسه " الخبر " ، وذلك كما في قول الله ــ تعالى ــ :

---

(1) الألوسي : روح المعاني ، 21 / 96 ــ 97 .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 11 ــ 12] .

فالجملة الاسمية ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ خبر مؤكد بثلاثة مؤكدات هي : " ألا " الاستفتاحية ، و " إنَّ " وضمير الفصل " هم " ، والغرض من التوكيد هنا تقوية مضمون الخبر الذي هو قصر الإفساد على هؤلاء المدعين الإصلاح .

وتأكيد الجملة بـــ " إن " المقرونة بـــ " ألا " التي تفيد التنبيه يدل على إشاعة مضمون الخبر وإعلانه مؤكداً بدعوى المنافقين التي جاءت في الخبر السابق ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، فالمنافقون قد أكدوا خبرهم بـــ " إنما " التي تفيد التوكيد والقصر فكانت جملة ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ رداً على دعواهم ، فأكدت بمؤكدات ثلاثة .

وجاء الأسلوب في هذا الردّ مغايراً لأسلوبهم من حيث الطريقة التعبيرية ؛ فالتعبير بـــ " ألا " التي تفيد التنبيه كإفادة اسم الإشارة ، والتنبيه يدل على التشهير بهم وفضحهم ، والتأكيد بـــ " إن " يفيد توكيد الحكم ونفي الشك فيه أو الإنكار له[1] ، وبهذا ينقطع شك المؤمنين فلا ينخدعوا بدعوى المنافقين ، ويُرَدُّ على إنكار المنافقين بأنهم مفسدون.

---

(1) ينظر : فاضل صالح السامرائي : معاني النحو ، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان ، الأردن ، ط 2 / 2003 ، 1 / 263 .

وزاد ذلك التوكيد قوة مجيء ضمير الفصل " هم " لتتضافر هــذه المؤكدات الثلاثة جميعها لتفنيد المنافقين وتبكيتهم ، فكان هذا الــرد فــي أعلى درجات التوكيد ، وجاء التعبير بالجملة الاسمية ليدل الخبر علــى ثبوت مضمونه ودوامه .

وكان الخبر مؤكداً لغرض تقوية مضمونه في الآيات الآتية (*) :

1 ــ ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيــدُ أَنْ تَبُــوءَ بِــإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة : 28 ــ 29] .

2 ــ ﴿ إِنَ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِــيمٌ بِمَــا يَفْعَلُــونَ ﴾ [يونس: 36] .

3 ــ ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود : 56] .

4 ــ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ [الكهف : 6 ــ 7] .

5 ــ ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْــدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 117] .

(*) الجمل الخبرية المقصودة فوق الخط .

6 ــ ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل : 79 ــ 80] .

ح ـ تقرير حقيقة الخبر في النفس :

يخرج الخبر عن مقتضى ظاهر الحال أحياناً لتقرير حقيقة مضمونه في النفس ، فيأتي مؤكداً بأداة من أدوات التوكيد ، وقد وقع التوكيد في القرآن الكريم لذلك في الجملة الخبرية بعدد من المؤكدات ؛ فجاء التوكيد بمؤكد واحد هو : " إنَّ " كما في قول الحق ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: 18] ، أو " إنما " وهي " إنَّ " التي دخلت عليها " ما " الكافة ، كما في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] . أو كان التوكيد بضمير الفصل وحده كما في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة : 27] .

وقد جاء التوكيد بمؤكدين ، فأكدت بعض الجمل الخبرية بـ " ألا" الاستفتاحية و " إنَّ " ، كما في قول الله ــ جل وعلا ــ : ﴿ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ [الشورى : 45] . وأكدت بعض الجمل الأخرى بـ " ألا " الاستفتاحية وضمير الفصل نحو قول الحق ــ جل وعلا ــ : ﴿ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر : 15] .

وقد يأتي التوكيد بثلاث مؤكدات ، كما في جملة ﴿ أَلا إِنَّ حِـــزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : 22] فقد جاءت مؤكدة بـــ " ألا " و "إن" وضمير الفصل " هم " وإنما تتنوع المؤكدات ، وتختلف درجات توكيـــد الخبر حسب المعنى المقصود تأديته .

وجاء الخبر هنا بالجملة المؤكدة لتقرير حقيقة مضمون الخبر في النفس ، فخرج الخبر عن مقتضى الظاهر ، وكثيراً ما يكون الخبر فـــي القرآن الكريم لتقرير حقيقة مضمونه في نفوس المخاطبين ، ومن ذلك :

1 ــ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَـمْ تُنْـذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : 6] .

2 ــ ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: 27] .

3 ــ ﴿ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّـهِ الإِسْـلَامُ ﴾ [آل عمران : 17] .

4 ــ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ ﴾ [النساء : 104 ــ 106] .

5 ــ ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّــكَ حَكِــيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : 128] .

6 ــ ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 71] .

7 ــ ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبــة : 102] .

8 ــ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] .

9 ــ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجر : 25] .

10 ــ ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَــةٍ مِــنَ اللَّــهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّــهُ ذُو فَــضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 173 ــ 175] .

ط ـ التوكيد لإظهار معتقد النفس :

قد يؤكد المتكلم الخبر ، لتظهر نفــسه معتقــدها[1] رغبــة فــي استدعاء ذلك ليكون المعتقد حاضراً حساً كأنه ماثل أمام عــين الــنفس

(1) ينظر : محمد أبوموسى ، خصائص التراكيب ، ص 62.

فتزدد بهذا المعتقد يقيناً لحاجتها إلى قوة اليقين في ذلـــك الموقـــف ، أو لتستشعر نعمة الله عليها فتطمئن وتهنأ ، ومن ذلك حكاية قـــول ســـيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْــحَاقَ إِنَّ رَبِّـــي لَـــسَمِيعُ الـــدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم : 39] .

فجملة ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ جملة خبرية مؤكد بـــ " إن " " واللام " الداخلة على خبر " إن " ، والتوكيد لإظهار معتقد نفـــس ســـيدنا إبراهيم في كمال صفات الله ــ جل وعلا ــ وهو يرغب في إظهار مـــا يؤمن به ويعتقده ليزداد شعوره بنعمة الله عليه في إجابة دعائــــه حيـــث وهب له الأبناء بعد زمن طويل من الانتظار .

ي ـ التوكيد لغرابة الخبر :

وقد يخرج الخبر عن مقتضى الظاهر فيلقى مؤكـــداً بـــأداة مـــن أدوات التوكيد أو أكثر ، والغرض من توكيده أن يؤنس المتكلم به نفـــس المخاطب غير المنكر ، وحرص المتكلم على ذلك بسبب غرابة الخبر ، وذلك إذا كان الخبر يحمل مضموناً جديداً غير معهـــود أو مـــستغرب . ومن ذلك جملة : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ . . . ﴾ في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَـــى

قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . كَـدَأْبِ آَلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَـرَّةٍ وَهُـمْ لا يَتَّقُـونَ ﴾ [الأنفال : 52 ــ 56] .

فإن مضمون الخبر في الجملة المؤكدة بـ " إن " هو : إن الذين كفروا ولم يؤمنوا ونقضوا عهودهم أسوأ حالاً من الدواب العجماء ، وأقل منزلة منها لأنهم يتصرفون تصرف من لا عقل له . ولا شك أن مثل هذا الخبر غريب في مضمونه ، غير معهود عند الناس ، فالمعلوم أن جنس البشر أحسن حالاً ، وأعلى منزلة من الدواب العجماء ، فلما كان مضمون الخبر غريباً كما ظهر حَسُنَ توكيده لتأنس النفس إلى مضمونه ، وتلتفت إلى تأمل معناه ، وتبحث عن سر مغزاه .

المبحث الرابع

بلاغة الجملة القرآنية الإنشائية

المبحث الرابع

بلاغة الجملة القرآنية الإنشائية

عرفنا فيما سبق أن الجملة العربية تنقسم من حيث الدلالة العامة إلى قسمين : جملة خبرية ، وجملة إنشائية ، ودرسنا الجملة الخبرية وبيَّنا أضربها وأغراضها من خلال النص القرآني . وفي هذا المبحث سنبين المقصود من الإنشاء ، ونفصل الكلام في أقسامه وأنواعه وأغراضه ، وأسراره البلاغية في الجمل القرآنية .

- **تعريف الإنشاء** :

الإنشاء لغةً : الإحياء والابتداء والبعث والخلق [1] ، قال الله ــ تعالى ــ : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ [الواقعة : 37]، وقال ــ عزَّ وجل ــ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم : 46] أي : البعثة الأخرى .

وسمي الكلام الإنشائي إنشائياً لأنَّ معناه ينشأ بنشوء لفظه ، ويوجد بوجوده [2]. ويُعرَّف الإنشاء عند البلاغيين بأنه : " الكلام الذي لا يحتمل التصديق أو التكذيب " [3]، وذلك لأنَّ الكلام الإنشائي ليس لمدلول لفظه وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه قبل النطق به ، وذلك مثل قولنا:

---

(1) ينظر : ابن منظور، لسان العرب ، مادة " نشأ " .

(2) ينظر : ابن هشام ، شرح شذور الذهب ، ص : 40 .

(3) الخطيب القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص : 99 .

انصر الحقَّ ، ولا تظلم . فمدلول هذه الجمل غير موجود في الخارج قبل إنشاء هذه الجمل والنطق بها . ولهذا فإننا لا يمكن أن نقول عنها : إنهـا صادقة أو كاذبة .

وتنقسم الجملة الإنشائية إلى قسمين اثنـين : الجملـة الإنـشائية الطلبية ، والجملة الإنشائية غير الطلبية ، وفيما يأتي أقدم مفهـوم كـلٍّ منهما :

1 ــ **الجملة الإنشائية الطلبية** : هي الجملة التي تستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب . فقولك لأخيك ــ مثلاً ــ : ذاكِرْ دروسكَ . يدل على طلب مذاكرة الدروس ، وهذه المذاكرة المطلوبة لم تكن موجودة في الخارج " الواقع " قبل النطق بهذه الجملة ، فالجملـة إذاً استدعت طلباً غير حاصل من قبل ، ولهذا سمي هـذا القـسم "طلبياً " .

وللإنشاء الطلبي أنواع كثيرة اختصَّ البلاغيون ببحث خمسة منها هي : الأمر ، والنهي ، والتمني ، والاستفهام ، والنداء .

2 ــ **الجملة الإنشائية غير الطلبية** : هي الجملة الإنـشائية التـي لا تستعدي مطلوباً ، وذلك كأسلوب القسم ، والتعجـب ، والمـدح والذم، والرجاء ، وألفاظ العقود ، وكم الخبرية ، وأمثلتـه : والله إن الحق لمنتصر ، ما أجمل الربيع ! ، نعم الرجل خالد ، بـئس

الخلق الكذب ، عسى الله أن يُصلح حال المنحرف ، بِعْتُ كتاباً مفيداً . . فهذه الجمل إنشائية غير أنها لا تستدعي أمراً مطلوباً، لذا فهي إنشاء غير طلبي .

ولا يكاد البلاغيون يلقون بالاً لهذا القسم ، وذلك لأنَّ أكثر جمله جمل خبرية في الأصل نقلت إلى معنى الإنشاء ، وقد اعتنى النحويون بهذا القسم ، وعقدوا لبعض أنواعه أبواباً خاصة .

وكانت عناية البلاغيين بالإنشاء الطلبي كبيرة ، ففصلوا أنواعه الخمسة وبينوا أغراضه وأسراره ، ونقوم هنا ببحث هذه الأنواع مستشهدين عليها بشواهد القرآن الكريم .

أنواع الإنشاء الطلبي

أولاً : **جملة الأمر** :

والأمر طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء . سواء أكان الاستعلاء حقاً أم ادعاءً ، مثل قول الله ــ تعالى ــ : ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فالجملة طلب من جهة الله ؛ حيث أنه يأمر عباده بإقامة الصلاة ، وهو طلب على جهة الاستعلاء حقاً لأن منزلة الآمر أعلى من منزلة المأمور ، وأمّا الاستعلاء ادعاءً فمثل أن يقول شخص لآخر ــ مدعياً العلو ــ : افعلْ كذا. وهو في الحقيقة مساوٍ للمأمور في المنزلة أو هو أدنى منه .

وللأمر أربع صيغ هي : فعل الأمر ، والفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر .

1 ــ فعل الأمر : كقول الله ــ تعالى ــ : ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه: 13] .

2 ــ الفعل المضارع المقترن بلام الأمر : ﴿لينفقْ ذو سَعةٍ من سَعَتهِ﴾ [الطلاق : 6]

3 ــ اسم فعل الأمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة : 104] .

4 ـــ المصدر النائب عن فعله : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرّقاب﴾ [محمد : 4]

وهذه الصيغ الأربع الأصل فيها أن تستدعي طلب الفعل على وجه الحتم والإلزام ، وهذا هو المعنى الحقيقي للأمر ـــ كما حققه علماء أصول الفقه ـــ وقد تأتي لمعانٍ أخرى مجازاً ، ويفهم ذلك من القرائن السياقية أو الحالية .

وهذا المبحث تناوله علماء الأصول ؛ حيث إنهم ركزوا على قضية الأمر والمقصود منه ، فذهب الجمهور إلى أنَّ الأمر يدل على الوجوب حقيقةً ، ولا يُصرف إلى معنى آخر إلا إذا دلت القرائن على غير الوجوب ، وبناءً على هذا كان بيان المقصود من الأوامر الربانية لعباده .

وقد حصر الأصوليون الأمر في الدلالة على الوجوب حقيقية ، أو الندب أوالإباحة مجازاً ، ولنأخذ من الآيات القرآنية ما يدل على هذه المعاني مبينين المراد .

أ ـ الأمر الحقيقي :

وهو الأمر الذي يدل على الوجوب ، وهذا لا يحتاج إلى قرينة لأن صيغة الأمر عند العرب ـــ الذين نزل القرآن بلغتهم ـــ تدل على

الوجوب في الأصل[1] ، ومثاله قول الله ـــ جل وعلا ـــ : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : 58] . فإنّ الأمـــر الـــذي عبر عنه الفعل " أطيعوا " حقيقي ؛ يفيد الوجوب لعـــدم وجـــود قرينـــةٍ تصرفه إلى معنى غير الوجوب .

وإذا نظرنا إلى السياق الذي وردت فيه هذه الجملة الكريمة فإننـــا نجد أنها وردت في سياق الحديث عن الإيمان والكفر ؛ فقبل هذه الجملة آيات أجملت مصير الكافرين ومصير المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا . . . ﴾ [النساء : 55] ، وقـــول الله ـــ تعـــالى ـــ : ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـــرِي مِـــنْ تَحْتِهَـــا الأَنْهَارُ ﴾ [النساء : 56] ، ثم كان الحديث عن صفات كـــل طائفـــة ، فصفات المؤمنين أداء الأمانة وطاعـــة الله والرســـول . . . وصـــفات الكافرين أنهم يزعمون الإيمان ، ويتحاكمون إلى الطاغوت .

إن هذا السياق تدلّ قرائنه على وجوب الأمر في﴿ أَطِيعُـــوا اللَّـــهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ . . . ﴾ ، وذلك لأنّ هذه الطاعة يترتب عليهـــا ثـــواب دخول الجنة الذي أشارت إليه الآية التـــي ســـبقت هـــذا الأمـــر ، ولأن المعصية التي هي نقيض الطاعة تؤدي إلى الكفر الذي يترتب عليه عقاب هو دخول النار ، وهذا ما عبر عنه السياق ، فعلم من مجموع هـــذا أن

---

(1) ينظر : الآمدي ، الأحكام ، 2 / 9 وما بعدها .

الأمر واجب ، إذ إنه لو لم يكن واجباً لما ترتب على فعله ثواب ، وعلى تركه عقاب دخول النار .

ونلاحظ هنا أنَّ القرينة غير واضحةٍ بجلاء كما هي في مواضع أخرى ، كقول الله ــ عزّ وجل ــ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : 3] . فالأمر في الآية ﴿ اتَّقُوا ﴾ يحمل على الوجوب حملاً له على الأصل ، لأنَّ الجملة التالية جاءت قرينة دالة على أنه للوجوب ، حيث إن جملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ بينت أن مخافة الله واجبة ، لأن ترك هذا الخوف والتقصير في الاتقاء يُعرّض صاحبه إلى عقاب الله الشديد .

وبصفة عامة فإن دلالة الأمر على الوجوب والإلزام تفهم من صيغة الطلب نفسها أو من القرائن الحالية أو السياقية الأخرى ؛ كترتيب العقوبة على ترك الأمر ، أو ذكر الفعل المأمور به مقروناً بوعد ونحو ذلك .

ومن أساليب الأمر في الجمل القرآنية التي جاء الأمر فيها حقيقياً للوجوب قول الله ــ تعالى ــ :

1 ــ ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة : 237] .

2 ــ ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ . . . ﴾ [النساء : 36] .

3 ـ ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام : 120] .

4 ـ ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : 29] .

ب ـ الأمر المجازي :

تأتي صيغ الأمر لمعانٍ أُخر سوى الوجوب ، ولابُدَّ ـ في هذه الحالة ـ من وجود قرينة حالية أو مقالية تدل على المعنى المقصود ، والغرض المراد ، وهذه القرينة هي الدالة على المعنى والصارفة له إلى وجه غير الوجوب .

وتتنوع أغراض الأمر المجازية ومعانيه بتنوع السياقات ، وقد أشرنا آنفاً أن القرآن الكريم جاءت صيغ الأمر فيه لبعض هذه المعاني ، وقد ركز علماء أصول الفقه على غرضين اثنين هما : الندب والإباحة ، وذلك لتعلّق بحثهم بالأحكام الخمسة المعروفة التي هي : الوجوب ، والندب ، والحرام ، والمكروه والمباح .

1 ـ الندب :

وقد جاء الأمر للندب في قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...﴾ [البقرة : 282].

ففي جملة ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ الأمر للندب لأنّ كتابة الدين أوثق وأدفع للنزاع ، والجمهور على أنه استحباب[1] ، ومثله : ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

2 ـ الإباحة :

ويأتي الأمر لمعنى الإباحة ، ومعناها جواز الفعل والترك ، واستواء الحالين ، فالمأمور في هذه الحالة مخير بين أن يفعل أو لا يفعل، ومن هذا الأمر في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة : 2] ، فالأمر بالاصطياد على وجه الإباحة ، حيث إنَّ الصيد كان ممنوعاً في الحرم ، فإذا خرج المسلم من الحرم إلى الحلّ وتحلّل أبيح له الصيد الذي كان محرّماً . ومن الإباحة كذلك الأمر بمكاتبة الموالي في قول الله ـ عزّ وجلَّ ـ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : 33] ، فقد نصَّ الشافعي على أن الأمر هنا للإباحة[2].

وهناك معانٍ أخرى يدل عليها الأمر ، وهي من المعاني المجازية كذلك ، نجد منها في الجمل القرآنية :

1 ـ الامتنان : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام : 141] .

---

(1) البيضاوي ، أنوار التنزيل ، 1 / 143 .

(2) ينظر : السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، 2 / 218 .

2 ــ الإنذار : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ [إبراهيم : 30] .

3 ــ التهديد والوعيد : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُــونَ بَــصِيرٌ﴾ [فصلت : 40] .

قال ابن الأنباري : " هذا أمر معناه التهديد ، تقديره : إن فعلــت هذا عاقبناك وعذبناك فَنُقل إلى لفظ الأمر عن الشرط كقوله ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ .

ومثله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ [الزمر : 15] فهو أمــر تهديد ووعيد

4 ــ التعجيز : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة : 23] .

5 ــ الإهانة : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ [الإسراء : 50] .

6 ــ الاحتقار : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس : 80].

7 ــ العجب : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ [الإسراء : 48].

8 ــ الإكرام : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ [الحجر : 46] .

9 ــ التذكير : ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأنعــام : 142] ، حيــث إن المراد من الأمر التذكير بنعمة الله على المأمورين .

10 ــ الالتماس : وذلك إذا استعمل الطلب على سبيل التلطف ، كقولك لمــن يساويك : افعلْ كذا ، ومنه قول موسى ــ عليــه الــسلام ــ لأخيــه هارون : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ [الأعراف : 142] .

11 ــ الدعاء : ويدلّ الأمر على الدعاء إذا استعمل الطلــب علــى ســبيل التضرّع نحو : ﴿ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] .

12 ــ التسوية : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ [التوبة : 53] ، ومثل : ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ﴾ [الطور : 16].

13 ــ التكذيب : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ [آل عمران : 93] .

ثانياً : جملة النّهي :

تأتي الجملة الإنشائية الطلبية للنّهي ، وقد ذكرنا ــ في السابق ــ أن النهي هو أحد أساليب الطلب ، ونبيّن هنا معنى النهي ، وصيغه ، وأغراضه التي يأتي لها .

- **معنى النهي** :

النّهي ، طلب الكفِّ عن الفعل على وجه الاستعلاء . فقول الله ــ تعالى ــ : ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 282] ، نهي عن كتم الشهادة ، والناهي هو الله والمخاطبون العباد، فالناهي ــ جلّ وعلا ــ يطلب من عباده الكف عن كتمان الشهادة، ولمّا كان النهي من الأعلى إلى الأدنى فهو على وجه الاستعلاء، والنهي حقيقي يراد به الكفّ والترك للفعل المنهي عنه ، ويكون حينئذٍ الفعل مُحرّماً شرعاً .

وليس للنهي إلا صيغة أصلية واحدة هي " لا تفعل " ، فـ " لا " الناهية الداخلة على الفعل المضارع هي صيغة النهي الأصلية ، ومثالها الجملة الكريمة السابقة ، وكقول الحق ــ جلّ وعلا ــ : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنا﴾ [الإسراء : 32] ، ومثلها ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ [الحجرات : 11] .

وهذه الأمور المنهي عنها في الآيات السابقة محرمة ويجب على المكلف أنْ يتركها ، والذي دلّ على طلب الترك ووجــوب الكــف هــو صيغة النهي التي أفادت النهي الحقيقي المستفاد منها عادةً ، وهي تــدل على وجوب الكفّ والترك والامتناع على الفور .

ولا ينصرف النّهي إلى معنى آخر غير طلب الكف إلا بقرينة من قرائن الحال أو السياق .

ومن شواهد النهي الحقيقي في القرآن :

1 ــ ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَــأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة188] .

2 ــ ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَــاء إِلاَّ مَا قَــدْ سَلَفَ إِنَّــهُ كَانَ فَاحِــشَــةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [النساء :22] .

3 ــ ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:32]

4 ــ ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ [النور :63] .

- **النهي المجازي** :

ومن المعاني غير الحقيقية للنهي التي تفهم من القرائن ما يلي :

1 ــ **الدعاء** : ويدل النهي على الدعاء إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة وشأناً ، كما في قول الداعي : ربّي لا تجعلني عوناً للظالمين ، ولا تحرمني من صحبة الصالحين . ومنه في القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ [البقرة : 285] .

ويدخل تحت هذا الباب كلّ نهي صادر من العبد إلى الله ــ تعالى ــ في القرآن ، وهو كثير ، منه :

1 ــ ﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : 194]

2 ــ ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 46]

3 ــ ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة : 5]

2 ــ **الالتماس** : وتكون صيغة النهي دالة على الالتماس إذا كان الناهي مساوياً للمخاطب قدراً ومنزلة ، ومنه خطاب هارون لأخيه موسى الذي حكاه القرآن : ﴿ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ [طه : 92] ، ﴿ فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ [الأعراف : 150].

3 ــ **الإرشاد** : ومعنى الإرشاد يُفهم من سياق الكلام الذي يوحي بالحرص على إفادة المخاطب ، وتوجيهه إلى ما فيه نفع ومصلحة ، كأن يقول لك أبوك ــ مثلاً ــ : لا تتكاسل عن أداء

واجبك . ويحمل على معنى الإرشاد قول العبد الصالح لموسى ــ عليه السلام ــ فيما حكاه القرآن : ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف : 69] . ومنه ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] .

4 ــ **الاستئناس والتبصير** : وقد يُساق النهي لأجل الائتناس ، فيكون غايته بعث الطمأنينة في نفس المخاطب ، وذلك نحو قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لصاحبه أبي بكر الصديق في الغار : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] .

وتتضح القضية ، وتتجلي صورة الموقف الذي صدر فيه هذا النهي بعرض السياق الذي وردت فيه جملة النهي ، قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : 40] .

فالموقف عصيب يشع بالاضطراب والخوف ــ وهو أمر جبلّي في الإنسان ــ فأبوبكر ذلك الصديق الحريص على صاحبه ، والمشغول بمساندته ومؤازرته من أجل إبلاغ رسالة الإسلام يشعر ــ رضى الله عنه ــ في هذا الموقف بالخطر على صاحبه رسول الدعوة ويخشى أن يراه المشركون فيقتحموا الغار ويدفعهم

جهلهم إلى قتل الرسول لأنـــه ــ رضـــي الله عنـــه ــ يعلـــم أنَّ الرسول بشر نبي ، وقد علم أن الأنبياء يجوز في حقهم القتل فقد وقع في الأمم السابقة أن قتل الأقوام أنبياءهم .

وفي هذا الموقف الصعب ، والحالة الخطرة يـأتي نهـي النبـي لصاحبه فيقول له : ﴿ لا تحزن ﴾ فكان الغرض من القول بعـث الطمأنينة وتأنيس أبي بكر ليأنس إلى الوعد الـصادق ، وتـرى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يزيد هذا المعنى تأكيداً بجملـة خبرية تالية للنهي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... ﴾، فتأنس نفس أبي بكر إلى هذا القول ، وتزول هواجس نفسه إذ أنزل الله السكينة ،وردَ كيد المشركين فرجعوا خائبين .

ومثل هذا : ﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّـا يَمْكُـرُونَ ﴾ [النحـل : 127].

5 ــ **التحذير** : ويكون بنهي المخاطب عن أمر مضرٍّ ، أو مخـوف ، كما في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَـسُوا اللَّـهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] ، في هذا النهي تحـذير مـن الوقوع في فعل الذين خلوا من الأمم الـسالفة الـذين نـسوا الله وأعرضوا عن منهجه فكانوا خاسرين هالكين .

6 ــ **التيئيس** : نحو ﴿ لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ [التحريم : 7] .

7 ـ **التحقير** : نحو ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا منهم﴾ [طه : 131]

8 ـ **التهديد** : نحو ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء : 171] . ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [طه : 61] .

9 ـ **التوبيخ** : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة : 41] .

ثالثاً : **جملة الاستفهام** :

معنى الاستفهام : معنى الاستفهام في اللغة طلب الفهــم ، فــإنّ الألف والسين والتاء أحرف زيادة تدلُّ على الطلب . أما في اصــطلاح البلاغيين فإنه : " طلب حصول صــورة الــشيء فــي الــذهن " [1] . فالمستفهم يطلب شيئاً غير معلوم له ، و يمكن أن نعرفه بأنه : طلب فهم شيءٍ لم يكن معلوماً من قبل بأداة .

فقول المستفهم : هل قرأت كتاب أسرار البلاغة ؟ . إنما يقصد به طلب فهم وقوع قراءة كتاب أسرار البلاغــة مــن عدمــه ، ويــستدعي حصول صورة الإجابة في ذهنه إما بالإيجاب أو السلب . وهذه الإجابــة غير معلومة له قبل طلبه هذا . ويستعمل المتكلم في الاستفهام أداة مــن الأدوات المستعملة لهذا الغرض ، فما أدوات الاستفهام ؟ .

أدوات الاستفهام نوعان : أحرف ، وهي الهمزة ، وهل . وأسماء هي : من ، وما، وكيف ، وكم ، ومتى ، وأين ، وأنى ، وأيان ، وأي . وهذه الأدوات تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث طبيعة ما يستفهم بها عنه :

1 ــ ما يستفهم به عن التصديق فقط ، وهي : هل .

---

(1) التفتزاني ، مختصر المعاني ، 1 / 123 .

2 ــ ما يستفهم به عن التصور فقط ، وهي أسماء الاستفهام : مــن ، وما ، وكيف ، وكم ، ومتى ، وأين ، وأنى ، وأيان ، وأي .

3 ــ ما يستفهم به عن التصور والتصديق ، وهي : الهمزة .

والمقصود بالتصديق: إدْراك النسبة الحكميّة بين المسند والْمُــسْنَد إليه، موجبةً كانت أم سالبة. أي أن المستفهم يجهل الحكم المــستفاد مــن الجملة ، الذي هو : وقوع نجاح خالد في قوله مستفهماً :

هل نجح خالد ؟ أو : أنجح خالد ؟. فيكون الجواب بالإيجاب : نعم نجــح خالد ، وفي السلب : لا لم ينجح .

أما طلب التصور فمعناه : طلب تعيين المفرد كقول المــستفهم : أشربت ماء أم عصيراً ؟ .

فالمستفهم هنا يعلم حصول الشرب ، أي : يعلــم وقــوع الحكــم " النسبة " التي هي الشرب ، بيد أنه يجهل المشروب ، فطلــب تعينــه ، ومثل ذلك في قوله : متى سافرت ؟ فهو يعلم وقوع الــسفر " الحكــم " ويجهل زمانه ويكون الجواب في هذه الحالة بتعيــين مفــرد ، فيقــال : شربت ماءً . وسافرت يوم الاثنين.

- **معاني أدوات الاستفهام** :

1 ــ **الهمزة** : وهي أصل أدوات الاستفهام ، وما عداها فهــو نائــب عنها. ويستفهم بها عن التصور أو التصديق كما ســبق بيانــه . وعندما يطلب بها التصور يكثر مجــيء معادل للمستفهَم عنه بعد " أم " ، وتسمى الهمزة حينئذ همزة التسوية ، مثل : أشربت ماءً أم عصيراً ؟ . وفي القرآن : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَــمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ...﴾ . [المنافقون : 6] .

2 ــ **هل** : وهي حرف كالهمزة ، ويستفهم بها عن التصديق فقط كمــا سبق . والأصل فيها أن تدخل على الجملة الفعلية فيليهــا الفعــل لفظاً أو تقديراً ، كما في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَــى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ . [الإنسان : 1].

أمّا إذا وقع بعدها جملة اسمية فإن ذلك إنما يكون لغرض بلاغي، وسرٍّ بياني ، وذلك كما في القرآن : ﴿ وَعَلَّمْنَــاهُ صَــنْعَةَ لَبُــوسٍ لَكُــمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 80] . فهنا جاء بعد " هل " جملة اسمية هي : " أنتم شاكرون " . والمعنى ــ والله أعلــم ــ فهل ستكونون حقّاً شاكرين ؟ . والســر البلاغي هــنا هو : التأكيد على وجوب وقوع الشكر ، والاعتناء به لذا عبر عنه بالجملة الاسمية التــي تفيد التوكيد بأصل وضعها .

3 ـ **من** : وهي اسم استفهام يستفهم بها عن العاقل ، فيطلب تعيين أحد العقلاء كقولنا : من قرأ كتاب المعونة ؟ . وفي القرآن : ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا ...﴾ [الأنبياء :59] .

4 ـ **ما** : ويستفهم بها عن غير العاقل ، ومعناها : أي شيء ؟ وهي اسم استفهام يطلب به إيضاح الاسم كما في قول المستفهم : ما العولمة ؟ . ما التِّبر ؟ . أو يستفهم بها عن حقيقة المسمّى ، مثل: ما الغيبة ؟ أو يستفهم بها عن بيان الصفة ، مثل : ما هذه الضجة؟. وفي القرآن جاءت للاستفهام عن إيضاح الاسم كما في: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .. ﴾ [الشعراء : 23] . ففرعون يطلب شرح معنى الاسم " رب العالمين " . ومن مجيئها للاستفهام عن بيان الصفة : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ...﴾ [طه : 17] .

5 ـ **كيف** : وهو اسم استفهام ، يستفهم به عن الحالة ، كقولنا : كيف جئت إلى الكلية ؟ . فتكون الإجابة ببيان الحالة فيقال : جئتُ راكباً . أو : جئت ماشياً . وفي القرآن جاء الاستفهام بها عن الحال حقيقة ، كما في قول الله ـ تعالى ـ ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة : 260] .

6 ــ كــم : وهو اسم استفهام ، لفظه مفرد ومعناه جمع ، وله صــدر الجملة ، كقولنا : كم طالباً في القاعة ؟ . وجاءت فــي القــرآن متعينة للاستفهام في ثلاث آيات هي :

1 ــ ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة : 259].

2 ــ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف :19] .

3 ــ ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ [المؤمنون : 112 ــ 113] .

7 ــ **متى** : اسم استفهام ، يطلب به تعيين الزمن الماضي أو المستقبل، كقولنا : متى سافرت إلى مكة ؟ . أو : متى ستسافر إلى المدينة المنورة ؟ . وهي في جميع مواقعها في القرآن الكريم استفهامية، وجاء الاستفهام بها عن الزمن المستقبل [1] . كما في قول الحق ــ جلّ وعلا ــ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الملك :25] .

---

(1) ينظر : محمد عبد الخالق عضيمة ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، 3 / 124 .

8 ــ **أيان** : وهو ظرف بمعنى " متى " ، ولكنـــه يخـــتص بالزمـــان المستقبل.[1] ، يقال : أيان ينتصر الحق ؟ . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعــراف : 187] . وتستعمل أيان في سياق التعظيم والتفخيم ، كما في الآية الكريمة السابقة الذكر .

9 ــ **أين** : اسم استفهام يسأل به عن المكان ، كأن يقال : أين الكتاب ؟ فيجاب : في المكتبة . وفي القرآن : ﴿ يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْــنَ الْمَفَرُّ﴾ [القيامة : 10] .

10 ــ **أنَّى** : وهو اسم استفهام له ثلاثة معانٍ[2] :

ــ كيف ؛ كقولنا : أنى يتقدم المسلمون ولم يعتصموا بحبــل الله ؟ . أي : كــيف يتقدم المسلمون ...؟ .

ومنه : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَــهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام :101] .

ــ من أين ؛ كقولنا : أنى لك هذا المال ؟ أي : من أين لــك هــذا المال؟ . ومنه قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ [آل عمران : 37] .

---

(1) ينظر : سيبويه ، الكتاب ، 2 /312 . والرضي ، شرح الكافية ، 2 / 109 .

2 ــ ينظر : سيبويه ، الكتاب ، 2 / 312 . و أبو حيان ، البحر المحيط ، 2 / 156 .

ـــ متى ، كقولنا : أنى يأتي خالد ؟ . أي : متى يأتي ..؟ . ومنـــه : ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ﴾ [آل عمران : 165] .

11 ــ أيّ : اسم استفهام ، وهي بحسب ما تضاف إليه ؛ فتضاف إلـــى الزمان وذلك مثل : في أيّ الأيام ولد سيدنا محمد ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ ؟ . ، أو المكان نحو : أي البلاد أحبّ إلى الله ؟ . أو الحال نحو : أي أصدقائك أحسن خلقاً ؟ . ونحو ذلك .

والمعاني التي ذكرناها لأدوات الاستفهام آنفاً هي المعاني الحقيقية ، وقد يأتي الاستفهام لمعانٍ مجازية تفهم من القرائن ، وهو ما يعرف عند البلاغيين بخروج الاستفهام عن مقتضى الظاهر وفيما يأتي بيان أشـــهر المعاني المجازية للاستفهام .

- **الاستفهام المجازي** :

ويقصد به أن يأتي الاستفهام ولا يقصِد المستفهم طلـــب جـــوابٍ لسؤاله ، لأنه غير جاهل بالجواب ، وإنما يرمي إلى شيءٍ آخر وغرضٍ معين ، وفيما يلي بيان أبرز هذه الأغراض البلاغية المجازية للاستفهام .

1 ــ النفي :

جاء الاستفهام بمعنى النفي في مثل قول الله ــ تعالى ــ ﴿ هَـلْ جَزَاءُ الإِحْسَـــانِ إِلا الإِحْسَانُ ﴾ [الـــرحمن : 60] والمعنـــى ــ والله

أعلم ــ : ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان . ومنه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] . أي : ليس أحد يشفع عنده إلا بإذنه. ومنه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ... ﴾ [آل عمران : 86] . قال القرطبي : " كيف لفظه استفهام ، ومعناه الجحد ، أي لا يهدي الله "[1] .

2 ــ النهي :

ومن ذلك قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ [التوبة :13]

والمعنى : لا تخشوهم .

3 ــ الأمر :

وذلك كما في قول الله ــ تعالى ــ ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء :75]

أي : قاتلوا في سبيل الله ، فهذا استفهام يفيد الحثّ والتحريض على الجهاد [2] .

ومثله : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] . أي : ادكر .

---

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، 3 / 179 .

(2) ينظر : أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، 3 /295 .

4 ــ الإخبار :

وذلك إذا عُلِّق الاستفهام فإنه يخرج عن معناه الحقيقي " طلب العلم " إلى معنى الخبر كما في قوله ــ جلّ وعلا ــ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ [الشعراء: 221] .

قال أبو حيان الأندلسي : " أنبئُكم معلّق ، لأنه بمعنى : أعلمكم فإن قدرتها متعدية لاثنين كانت سادة مسد المفعول الثاني وإن قدرتها متعدية لثلاثة كانت سادة مسد الاثنين ، والاستفهام إذا علّق عنه العامل لا يبقى على حقيقة الاستفهام ، وهو الاستعلام ، بل يؤول معناه إلى الخبر ... [(1)] . والمعنى : أنبئُكم على من تنزل الشياطين وأعلمكم بذلك ، والسياق يشهد لهذا ، ألا ترى أنّ الإخبار جاء بعد ذلك مباشرة فقال ــ عز وجلّ ــ : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : 222] . وفي هذه الحالة وأمثالها يكون الكلام إنشائي اللفظ خبريَّ المعنى .

5 ــ التقرير :

ويقصد بالتقرير : حمل المخاطب على الاعتراف بما يعرفه ، والإقرار بشيء لغرض ما ؛ وذلك نحو قول الحق ــ جلّ وعلا : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح : 1] .

---

(1) المصدر السابق ، 7 / 48 .

فالله ــ سبحانه ــ يريد من نبيه أن يقرّ بنعمته عليه ، والغــرض البلاغي من ذلك ــ والله أعلم ــ ليؤنسه ــ صلى الله عليــه وســلم ــ ويطمئنه بأنه كما شرح صدره فإنه سيؤيده بنصره ، وإظهــار دينــه ، ورفع ذكره .ومثله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] .

6 ــ التعجب :

ومنه : ﴿ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41] .

ومثله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطــار : 6].

7 ــ الاستبطاء :

وذلك كما في : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَــى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 214] .

8 ــ التهكم :

ومثاله : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَــلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود : 87]

9 ــ الإنكار :

والاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم كثير ، وهو على قسمين :

أ ــ إنكار توبيخ :

كما في قوله ــ جلّ وعلا ــ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُون ﴾ [البقرة : 44] . ومثله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 85] .

ب ــ إنكار تكذيب :

وذلك نحو : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ [الصافات : 153]. فهذا إنكار من الله ــ تعالى ــ يكذب فيه دعوى المشركين الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

10 ــ التحقير :

كما في : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ . [الأنبياء : 52] .

ومنه : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً...﴾ . [الفرقان : 41] .

11 ـ الاستبعاد :

كقول الحق ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ [الدخان : 13] .

12 ـ التمني :

ومنه قول الكافرين الذي حكاه القرآن : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ [الأعراف : 53] .

رابعاً : جملة التمني :

التمني هو القسم الرابع من أقسام الإنشاء الطلبي ، إذ إنه طلب أمرٍ مرغوب محبوب ، فهو يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت التلفظ بجملته .

- **معنى التمني :**

ومعنى التمني لغةً : التشهي ، جاء في لسان العرب : " التَّمَنِّي حديث النفس بما يكون وبما لا يكون ....قال ابن الأَثير التَّمَنِّي تَشَهِّي حُصُولِ الأَمر المَرْغوب فيه وحديثُ النَّفْس بما يكون وما لا يكون[1]. ومن هذا المعنى اللغوي أخذ المعنى الاصطلاحيّ عند البلاغيين .

فالتمني اصطلاحاً : " طلب حصول شيءٍ مرغوب بشرط المحبة"[2]. وقد يكون الأمر المتمنى مستحيلاً ، أو بعيد المنال ، كتمني الشاعر أبي العتاهية عودة الشباب في قوله :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

فعودة الشباب أمر مستحيل لا مطمع فيه . أما مثال الأمر البعيد فكتمني أهل الدنيا أن يكون لهم مثل ما لقارون من الأموال : قال الله ـــ

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة " مني " ، 15 / 292 .

(2) الخطيب القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص : 99 .

تعالى ــ :﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ . [القصص : 79] .

وإذا كان الأمر المطلوب المرغوب منتظر الحصول قريب التحقق سمي ترجّياً ، ويعبر عنه بأدوات الترجي " لعلَّ ، وعسى " ، مثل : لعلي أنجح في الاختبار .

والألفاظ المستعملة في التمني أربعة ؛ واحدة أصل فيه ، هي : ليت ، وثلاثة مستعارة لمعنى التمني هي : لعلّ ، ولو ، وهل .

1 ــ ليت :

وهي حرف تمنٍّ يستعمل للأمر المستحيل غالباً ، وللممكن قليلاً[1]. فمن استعمالها للمستحيل ما حكاه القرآن من قول الكافر يوم القيامة : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : 40] .

واستعمالها للممكن البعيد كما في : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ . [القصص : 79] .

2 ــ لعلّ :

وهي في الأصل حرف ترجٍّ للأمر المحبوب ، وإشفاق من المكروه[2]، واستعملت للتمني لإظهار الأمر المتمنى في صورة الممكن

---

(1) ينظر : ابن هشام ، مغني اللبيب ، 1 / 413 .

(2) المصدر السابق ، 1 / 416 .

المرجو الحصول وذلك لاشتياق المتكلم إليه ، وكمال عنايته بـــه[1] كمـــا في: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ [غافر: 36].

3 ــ لو :

وهي في الأصل حرف شرط ، وجاءت للتمني في لغة العرب ، واستعمالها في التمني لإبراز الأمر المتمنى في صـــورة الممتنـــع غيـــر الموجود . وقد جاءت في القرآن لهذا المعنى ، كما في : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَـــا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 102] .

فهذا تمنّ من الكافرين "أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم فـــي الإيمان بالله وحده .

ولو هذه للتمني ، وأصلها (لو) الشرطية لكنها تُنُوســـي منهـــا معنى الشرط .[2] .

4 ــ هل :

وهي في الأصل حرف استفهام ، ومجيئها للتمني لإبراز الأمـــر المتمنى في صورة المستفهم عنه المطموع في وقوعه لشدة عناية المتكلم

---

(1) ينظر : عبد العزيز عتيق ، علم المعاني ، ص : 113 .

(2) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، 19 / 155 .

به ، كما في : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَــا ... ﴾ [الأعــراف: 53]. وفي :﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر : 11] .

ذكرنا آنفاً أن طلب الأمر المحبوب المرجــوِّ الحــصول يــسمّى ترجياً، وتستعمل فيه : لعلّ وعسى ؛ نحو قــول الحــق ــ تعــالى ــ : ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : 52] .

خامساً : **جملة النداء** :

وجملة النداء هي القسم الخامس من أقسام الإنشاء الطلبي ، فهي تدلّ على الطلب باستعمال حرف من أحرف النداء المعروفة في العربية .

- **معنى النداء** :

هو طلب الإقبال بحرفٍ نائبٍ مناب الفعل " أدعـــو " ونحـــوه[1]. فقولنا : يا خالد . معناه : أدعو خالداً . أي : أطلب إقباله ، وحرف النداء ينوب عن الفعل أدعو ، أو ما في معناه .

للنداء أحرف ثمانية هي : الهمـــزة ، ويـــا ، وأي ، وآي ، وآ ، وأيا، وهيا ، ووا .

وهي قسمان من حيث الاستعمال :

1 ــ ما يستعمل لنداء القريب ؛ وهما حرفان : الهمزة ، وأي .

2 ــ ما يستعمل لنداء البعيد ؛ وهي ستة : يـــا ، وآي ، وآ ، وأيـــا ، وهيا، ووا .

هذا هو الأصل في الاستعمال ، بيد أنه قد يخـــرج الكـــلام عـــن مقتضى الظاهر فيُستعمل ما لنداء القريب لنداء البعيد ، أو ما لنداء البعيد

---

(1) ينظر : الخطيب القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص : 106 .

لنداء القريب ، ويكون ذلك لغرضٍ بلاغي ومقصد معنوي ، يبدو للمتكلم البليغ ، والكاتب المبدع .

- **خروج النداء عن مقتضى الظاهر** :

يخرج النداء عن مقتضى الظاهر ، فيعامل البعيد معاملة القريب فينادى بالهمزة أو بأي لغرض من الأغراض البلاغية الآتية :

1 ـ التشريف :

وفيه ينادى البعيد نداء القريب تشريفاً له ولجعله قريب المنزلة من المتكلم العزيز العالي المنزلة ، ويمكن أن يكون منه نداء الله لعبده القانت بالهمزة ـ في قراءة نافع وابن كثير وحمزة[1] ـ بتخفيف ميم " أمَن " في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه ... ﴾ [الزمر : 9] .

وكذلك في قول الحق : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر : 8] .

فقد قرأ طلحة " أمَنْ " بغير فاء فتحتمل الهمزة أن تكون حرف نداء .[2] .

---

(1) ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، 2 / 416 .

(2) ينظر : أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، 7 / 301 .

2 ــ المحبة والذكر :

وقد يعامل البعيد بعداً مكانياً معاملة القريب تعبيراً عن قربه من العقل أو القلب وإن بعد الجسم . كقول الشاعر في رثاء ابنه:

أأبيَّ لا تبعد وليس بخالدٍ حيٌّ ومَن تُصبِ المنونُ بعيدُ

فالشاعر ينادي ابنه الميت نداء القريب ليعبر عن تعلق قلبه به ، وتمكن محبته من فؤاده .

أمَّا معاملة القريب معاملة البعيد وتنزيله منزلته فيكون لغرضٍ بلاغي من الأغراض الآتية :

1 ــ الإشارة إلى علو منزلة المنادى :

لعلو مكانته ، وشرف منزلته ؛ ومن ذلك : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآَنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : 30] .

ويدخل تحت هذا القسم كلّ نداء من العبد لربه ، كما في : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] . والتقدير ــ والله أعلم ــ : يا رب . فإن حرف النداء إذا كان محذوفاً قُدِّر بـ "يا " . وقد حذفت في القرآن في نداء " ربِ " في سبعة وستين موضعاً [1]".

---

(1) ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص:287.

2 ـ الإشارة إلى غفلة المنادى :

فيكون الغرض من النداء التنبيه والدعوة إلى اليقظة ، وذلك نحـــو نداء أنبياء الله لأقوامهم التي حكاها القرآن من مثل :

ـ ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ [المؤمنون : 23] .

ـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [نوح : 2] .

3 ـ الإشارة إلى انحطاط منزلة المنادى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ .. ﴾ [هود :44] .

ومنه : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: 69] .

وقد يأتي النداء لغرض بلاغي غير هذه الأغراض فلا يقصد بــه النداء الحقيقي وإنما يراد به معنىً من المعاني كالإغراء والاختــصاص والزجر والتعجب والتحسر والتوجع والندبة والاستغاثة.

المبحث الخامس

بلاغة الفصل والوصل

المبحث الخامس

بلاغة الفصل والوصل

لم يقتصر البحث البلاغي عند علمائنا على بلاغة الكلمة المفردة والجملة الواحدة بل تعدى ذلك إلى بحث بلاغة العبارة ؛ فبحثوا بلاغة الجوار بين الجمل من خلال الفصل والوصل بينها. فالمتكلم البليغ من يعلم متى يصل الجملة بجارتها ومتى يفصل بينهما .

ويعتمد الفصل والوصل عندهم على العطف بالواو خاصة ؛ لما في العطف بها من مزيد معنى إذ إن العطف بها يختلف عن العطف بأحرف العطف الأخرى ؛ فالفاء مثلاً تفيد مع التشريك التعقيب والترتيب ، وثمَ تفيد التراخي ، وهذه معانٍ معلومة لا يقع اللبس فيها أمّا الواو فالأمر فيها مختلف ؛ فهي تفيد الاشتراك في الحكم فحسب لذا قد يخفى موضع الحاجة إليها ، فلا يتبين للمتكلم أيعطف بها فيصل الكلام أم يدع العطف فيفصل الجملة الثانية مستأنفاً ؟ .

ومن أجل ذلك الخفاء فإن إجادة هذا الأمر وإتقانه يحتاج إلى مزية خاصة ومعرفة زائدة ، وذوق رفيع ، وشعور رهيف ، يدرك بها المتكلم وسائل التعبير الصائبة في لغة العرب ، وقد أدرك الأوائل هذه الحقيقة ؛ يقول الجرجاني :

" اعلم أنَ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورةً ، تستأنف واحدةً منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأَتَّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص ، وإلاّ قوم طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد "[1] .

ولدقة مسلك هذا الموضوع حصروا البلاغة في معرفته وإتقانه؛ فقالوا في البلاغة : معرفة الفصل من الوصل "[2] . وبعد أن قدمنا ببيان أهمية هذا الموضوع وخطورته فإننا سنشرع في بيان مفهومه وأحكامه ، وكشف بعض أسراره .

مفهوم الفصل والوصل :

أولاً : الفصل : هو ترك عطف جملة على جملة أخرى قبلها . كقولنا : الدنيا دار عبور ، ليست دار قرار . فالجملة الثانية : ليست دار قرار . لم تعطف على جملة " الدنيا دار عبور " أي : فصلت الجملة الثانية عن الأولى وسبب هذا الفصل اتحاد الجملتين في المعنى اتحاداً تامّاً لوقوع الثانية مؤكدة للأولى في المعنى ، فكأنهما جملة واحدة ، لذا لم يجز إدخال حرف العطف لعدم

---

(1) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 222 .

(2) ينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، 1 / 88 .

احتياجهما إليه ، واستغنائهما بما بينهما من ترابط معنـــوي عـــن الوصل بالواو . ويتحقق ذلك في خمس حالات تعرف بمواضـــع الفصل .

- مواضع الفصل :

يقول عبد القاهر الجرجاني : " فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين "[1]. يحدد هذا النص حالات الفصل إجمـــالاً ، ويضع قاعدة عامة لذلك ، وقد بين علماء البلاغة هذه المواضع ، ونقوم الآن ببيانها تفصيلاً مع ذكر شواهدها من القرآن الكريم مـــردفين ذلـــك بالتحليل البلاغي لها .

1 - كمال الاتصال :

والمقصود به اتحاد الجملتين اتحاداً تامّاً ، وامتزاجهما معنويـــاً ، وهذا ما عبر عنه الجرجاني في نصه السابق بـــ " الاتصال إلى الغاية " ويتحقق كمال الاتصال في التوكيد والبدل وعطف البيان .

إذا كانت التوابع في المفردات خمسة هي : النعـــت ، وعطـــف النسق ، وعطف البيان ، والبدل ، والتوكيد ، فإن التوابـــع فـــي الجمـــل

(1) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 243 .

تنحصر في ثلاثة أنواع عند النحويين هي : عطف النسق والبدل والتوكيد، فلا تكون الجملة نعتاً لجملة أخرى[1] ، وكذلك عطف البيان لا يكون جملة عند النحويين ، وعلماء البلاغة يجيزون وقوعه جملة [2].

وبناءً على ذلك فإن الجملة تقع بدلاً من الجملة ، وتقع توكيداً لجملة أخرى ، وتقع معطوفة بحرف النسق على جملة أخرى ؛ ومثال الجملة الواقعة بدلاً جملة : ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ فهي بدل من جملة ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ وذلك في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ [الفرقان: 68 ــ 69] . كما أن جملة ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ عطفت بالواو على جملة : ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ .

ومثال الجملة الواقعة توكيداً لجملة أخرى ، جملة ﴿أَمْهِلْهُمْ ﴾ فقد جاءت توكيداً لجملة ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق : 17] .

وأما وقوع الجملة عطف بيان فإن جمهور النحويين لا يجيزونه ، وأجاز أبوعلي الشلوبين والسيوطي مجيء عطف البيان جملة ، وهذا ما

---

(1) ينظر : الرضي : شرح الكافية ، 1 / 307 .

(2) ينظر : الأشموني : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان ، 89/3 .

عليه علماء المعاني الذين تأملوا النـــصوص اللغويـــة الأدبيـــة وقـــاموا بتحليلها[1].

ونبين الآن فصل جملة البدل عن جملة المبدل منـــه ، وجملـــة عطف البيان عن جملة المبيَّن ، وجملة التوكيد عن الجملـــة المؤكَّـــدة . وبناءً على ذلك فإن البحث هنا ينحصر في ثلاثة أقسام يكون الفصل فيها بسبب كمال الاتصال .

أ ـ فصل جملة البدل :

والبدل عند النحويين هو " التابع المقصود بحكم بلا واسطة" [2]، ويبدل المفرد من المفرد والجملة من الجملة ، وشرط البـــدل الجملـــة أن يكون أوفى من المبدل منه في المعنى ، وأتم بتأديته ، أو أكثر وضوحاً ، لأن المقصود في الكلام هو جملة البدل ، أما الجملة المبدل منهـــا فإنهـــا تأتي تمهيداً وتوطئة للبدل[3] .

ومثال ذلك الجملة القرآنية ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ﴾وقعت بدلا من جملة ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾في قول الله ــ جل وعلا ــ : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ

---

(1) ينظر تفصيل هذه المسألة في : الرضي : شرح الكافية ، 1 / 307 ، والأشموني: شرح الأشموني، 3 / 89 ، والسيوطي : همع الهوامع ، 1 / 248 .

(2) السيوطي : همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، 2 / 125 .

(3) ينظر : ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 67 ، والصبان : حاشية الـــصبان علـــى شرح الأشموني ، 131/3 .

بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ [الشعراء : 132 ــ 133] ، فجملة البدل في الآية الكريمة دلت على نعم الله مفصلة بينما كانت جملة المبدل منه مجملة فأفادت جملة البدل مزيد معنى وتوضيح .

ومن الجمل التي وقعت بدلاً جملة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ فهي بدل اشتمال من جملة ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عربيّاً ﴾ ، وذلك في قول الله ــ عز وجل ــ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: 2 ــ 3] ، وكانت هذه الجملة بدل اشتمال " لأن أحسن القصص مما يشتمل عليه إنزال القرآن وكون القصص من عند الله يتنزل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله " [1].

وبعقد مقارنة بين جملة البدل والجملة المبدل منها تتكشف العلاقة الرابطة بين الجملتين ؛ فالجملة المبدل منها ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً ﴾ تقدم فيها المسند إليه وهو الضمير " نا " المتصل بـ " إنَّ " تقدم على المسند الذي هو الجملة الفعلية " أنزلناه " ، وهذا التقديم يدل على الاختصاص : اختصاص المسند إليه بالمسند أي : اختصاص الإنزال بالله ــ جل وعلا ــ فهو المنزل للقرآن لا أحد غيره ، ممن ادعى الكافرون أنهم

(1) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 12 / 202 .

مصدر القرآن، فقد قالوا : يعلمه بشر ، وقالوا : أساطير الأولين ونحـــو ذلك .

فكان من معاني هذه الجملة اختصاص إنزال القرآن بالحق ــ جل وعلا ــ وهذا المعنى نفسه كان في جملة البدل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ ، فتقدم " الضمير على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص ، أي نحن نقص لا غيرنا ، رداً على من يطعن من المشركين في القرآن بقولهم " إنما يعلمه بشر ... " وفي هذا الاختصاص توافق بين جملة البدل والجملة المبدل منها فـــي تأكيد كون القرآن من عند الله المفــاد بقولـــه : " إنـــا أنزلنـــاه قرءانـــاً عربياً."[1].

وقد ظهر من هذه المقارنة وجه الترابط المعنوي بين الجملتـــين الذي كان سبباً في انفصالهما في اللفظ ، فكلتاهما جاءتـــا لتأكيـــد كـــون القرآن منزلاً من عند الله ، وجملة البدل كانت تأكيداً لهذا المعنى الذي في جملة المبدل منه ، فالعلاقة الرابطة هنا هي علاقة " التوكيـــد " وهـــذه العلاقة هي إحدى أغراض البدل وفوائده ؛ فإن البدل قد يأتي للتوضـــيح والتبيين ، وقد يأتي للتفسير أو التفخيم أو التوكيد ، وقد ذكر العلماء مـــن قبل هذه الأمور وسموها فوائدَ أو أغراضاً[2] .

---

(1) المصدر السابق : 12 / 203 .

(2) ينظر : سيبويه : الكتاب ، 1 / 79 ، والرضي : شرح الرضي علـــى الكافيـــة ، 337/1 ، والسيوطي : الإتقان ، 2 / 70 .

وتجدر الإشارة إلى أن علاقة " التوكيد " لا تجعل البدل تأكيـــداً ، وذلك لاختلاف البدل عن التأكيد ، فالتأكيد هو عين المؤكد ، أما البـــدل ففيه زيادة في المعنى ، وهو أوفى بتأدية المعنى من المبدل منه ، وهـــذا ما عناه الرضي عند شرحه لجملة : مررت بزيـــد أخيـــك يقـــول : " إذ مدلول قولك أخيك في " بزيد أخيك " لو كان عين مدلول زيد لكان تأكيداً وأخوك يدل على أخوّة المخاطب ولم يكن يدل عليها زيـــد " [1]، فهـــذا الكلام بيان وتوضيح للفارق بين التأكيد والبدل في المفرد ، والأمر شبيه بهذا في الجمل .

ب ـ فصل جملة عطف البيان :

وعطف البيان عند النحويين " التابع الجامد المشبه للـــصفة فـــي إيضاح متبوعه وعدم استقلاله " [2]، واتفقوا على وقوعه فـــي المفـــرد ، وجمهور النحويين يرون أن عطف البيان لا يكون جملة ، وخالفهم فـــي ذلك أبوعلي الشلوبين والسيوطي[3] ، أمّا علماء البلاغة فقد أجازوا وقوع عطف البيان جملة ، وهذا هو الرأي الذي يكشف عنه تحليل النصوص .

---

(1) الرضي : شرح الكافية ، 1 / 339 .

(2) ابن عقيل : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، 2 / 218 .

(3) ينظر : الأشموني : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، 3 / 89 ، والسيوطي : همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، 1 / 248 .

وتدخل الجملة التفسيرية تحت باب عطف البيان كما يرى أبوعلي الشلوبين ، واختار هذا الرأي السيوطي ؛ فقول النحـويين : إن الجملـة التفسيرية لا محل لها ليس على ظاهره ، والتحقيق أنها تتبع ما فسرته ؛ فإن كان المفسر له محل فهي ذات محل ، وإن لم يكن له محل فهـي لا محل لها [1]، وذلك كجملة ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ التي جـاءت تفـسيراً لجملـة ﴿وَعَدَ اللَّهُ ﴾ ، في قول الحق ــ جل وعلا ــ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 9] ، فالجملـة التفسيرية في محل نصب .

ويبدو من البحث في كتب إعراب القرآن وكتب التفسير وكتـب البلاغة أن الجمل الواقعة تفسيراً تأتي مفسرة لمفردٍ أو لشبه جملة كثيراً ، وقلما تأتي لتفسر جملة ، ولم أظفر في بحثي بـشواهد قرآنيـة للجملـة الاسمية الواقعة عطف بيان .

ج ـ فصل جملة التوكيد :

والتوكيد عند النحويين قسمان : لفظـي ومعنـوي ، والمقـصود باللفظي ما تكرر فيه لفظ المؤكد . أمَّا المعنوي فله ألفاظ معروفة نحو : عين ، نفس ، وكل ، وجميع ....إلخ ، وهذا النوع خاص بالمفرد ، وأما

---

(1) ينظر : المصدر السابق ، 1 / 248 .

التوكيد اللفظي فقد يكون في المفـــردات ، وقـــد يكـــون فـــي الجمـــل ، والمقصود هنا هو التوكيد بالجملة .

ولهذا التوكيد الجُملي نوعان : نوع توافق فيه جملة التوكيد الجملة المؤكدة في ألفاظها ومعناها ؛ كجملة ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ فـــي قـــول الحق ــ جل وعلا ــ : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُـــسْراً ﴾ [الانشراح : 5 ــ 6] ، ونوع آخر توافق فيه جملـــة التوكيـــد الجملـــة المؤكدة في المعنى دون الألفاظ [1] مثل جملـــة : ﴿لا يُؤْمِنُـــونَ ﴾ التـــي جاءت توكيداً لـــجملة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ في الآيـــة الكريمة الآتية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] . فكل من الجملتين تفيد نفي الإيمان عنهم .

وأجاز النحويون مجيء جملة التوكيد مقترنة بحرف من حروف العطف ، وخصوا ذلك بـــ " الفاء وثم " ، وعدوا الحرف في هذه الحالة حرف عطف في الصورة لا في الحقيقة " لأن الحرف لو كـــان عاطفـــاً حقيقياً كانت تبعية ما بعده لما قبله بالعطف لا التأكيد "[2] ، وذلك نحـــو قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ [القيامة : 34] ، فجملة ﴿ فَأَوْلَى ﴾ توكيد لجملة ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾، وليست معطوفة عليها .

---

(1) ينظر : الأشموني : شرح الأشموني مع حاشية الصبان ، 3 / 80 ــ 81 ، وابن جني : الخصائص، 3 / 101 وما بعدها .

(2) الصبان : حاشية الصبان على شرح الأشموني ، 3 / 81 .

وجاءت الجملة الاسمية توكيداً لجملة اسمية أخرى في القرآن الكريم في جمل محدودة معدودة ؛ ويظهر ذلك من البحث في القرآن الكريم ، وكتب إعراب القرآن ، والتفسير ، وكتب النحو والبلاغة ، فلا يكاد يظفر الباحث المتأمل بجملة سوى الجمل التي ذكرها المعربون والمفسرون من قبل ، وفيما يلي ذكر هذه الجمل [1] :

1 ــ ﴿ الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 1 ــ 2] .

2 ــ ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] .

3 ــ ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ [القيامة : 34 ــ 35].

4 ــ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) ﴾ [المرسلات : 15 ــ 19] .

5 ــ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ [الانشراح : 5ــ6] .

---

(1) ينظر الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص : 175 ، وأبوحيان الأندلسي : البحر المحيط ، 1 / 405 ، 8 / 488 ، ومحمد عبد الخالق عضيمة : دراسات لأسلوب القرآن ، 11 / 14 .

ففي الآية الكريمة الأولى جملة : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقعت توكيداً لجملة : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ، وهو من قبيل توكيد معنى الجملة بمعنى جملة أخرى ، وهذا " بمنزلة أن تقول : هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب . فتعيد مرة ثانية لتثبته ، وليس يثبت الخبر غير الخبر ، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضامّ يضمه إليه وعاطف يعطفه عليه "[1] .

فجملة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ إثبات وتحقيق لكون هذا المشار إليه هو الكتاب العظيم ، وهذا المعنى هو نفسه الذي تحمله جملة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فكلتا الجملتين تشير إلى القرآن المكتوب المنزل ، وتبين علو منزلته وشأنه ، فجملة التوكيد ليست شيئاً آخر سوى الجملة المؤكدة ، وهذا ما قصده عبدا لقاهر الجرجاني بقوله السابق حين قال : " ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضامّ يضمه إليه وعاطف يعطفه عليه " . ولأن الجملتين شيء واحد في المعنى لم تعطف أخراهما على أولاهما ، واستغنتا بالترابط المعنوي بينهما عن الترابط بحرف من حروف العطف وفصلتا .

والعلاقة الرابطة بين الجملتين كما تبين هي علاقة " التوكيد " ، وهي علاقة معنوية رابطة بين الجمل ، وتصدر عن أحد أمرين : إما

(1) الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص : 175 .

توافق لفظي بين الجملتين ، ويكون ذلك بتكرار ألفاظ الجملة المؤكـــدة ، وإما توافق معنوي بين الجملتين ، كما ظهر في الآية الكريمة السابقة .

وتتجلى روعة الترابط بين الجملتين وجماله في إثبات مـــضمون الخبر " معنى الجملة " بكل وجه ؛ فالجملة الأولى عبرت عن المضمون بأسلوب الإثبات ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ، والجملة الثانية عبرت عن مضمونها بأسلوب النفي ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، فأفادتا معاً أعلى درجات التوكيد ، ونفتا كون هذا الكتاب موضع ريبة وشك ، فهو حق وصدق .

ومن الجمل الواقعة توكيداً جملة : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فهـــي توكيد : للجملة المماثلة لها التي جاءت قبلها ، وذلك في قول الحـــق ــ جل وعلا ــ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْـــلٌ يَوْمَئِـــذٍ لِلْمُكَـــذِّبِينَ (19) ﴾ [المرسلات : 15 ــ 19] ، وكان التوكيد بإعادة ألفاظ الجملة نفـــسها ، فأفادت الجملة الثانية توكيد الأولى في لفظها ومعناها الذي هـــو وعيـــد بالعذاب والخزي لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر[1] .

والترابط المعنوي بين الجملتين قوي لاتفاق الجملتين لفظاً ومعنى، وكانت علاقة " التوكيد " ، والتوافق بين تينك الجملتـــين هـــي العلاقـــة الرابطة ، وكان توكيد الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بتكرارها في سورة

---

(1) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن الكريم ، 19 / 156 .

المرسلات وذلك " مبالغة في الإنكار علـيهم وتأكيـد لوقـوع الـسّخط والغضب لأجل تكذيبهم ، وحذاراً عن الإتيان بمثل ما أتوا به من إنكـار هذا اليوم العظيم" [1] ، ولاشك أن توكيد الوعيد بهذه الصورة التي هـي إعادة الجملة أقوى من توكيد الجملة بمؤكد من المؤكدات التي تدخل على الجملة ، فإذا قيل : الحق منتصرٌ، الحق منتصر ، كان ذلك أقوى توكيداً من قولنا : إن الحق منتصر ونحو ذلك .

وفي الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَـوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُـسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقـرة : 14] جاءت جملـة ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ توكيداً لجملة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ ﴾حيث إن معنى ﴿إِنَّا مَعَكُمْ ﴾هو: إنا لم نترك دينكم، ومعنى قـولهم : ﴿ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ هو : إنما نحن نستهزئ بالمسلمين عندما نلقاهم ونقول لهم آمنا ، ويتضح هذا المعنى جلياً من السياق القرآني الكريم ، قـال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّـا مَعَكُـمْ إِنَّمَـا نَحْـنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14].

وهذا التوكيد من قبيل توكيد معنى جملة بمعنى جملـة أخـرى ، فالجملتان في الآية الكريمة لا تتفقان في الألفاظ ، وإنما كان اتفاقهما في المعنى ، وهذا الاتفاق هو الذي سوغ انفصال الجملتين في اللفظ . بيد أنه

---

(1) العلوي : الطراز ، 2 / 95 .

ثمة ترابط معنوي بين الجملتين وذلك بعلاقة "التوكيد" ، التي وضحت المعنى المقصود من الآية وهو : إن هؤلاء المنافقين لهم وجهان ، وجه مع المؤمنين ووجه مع كبرائهم .

وقد أشار الجرجاني إلى هذا حين قال : " فهو إذن كلام أكد به كلام آخر هو في معناه ، وليس شيئاً سواه . . . وذلك لأن معنى قولهم : (إنا معكم) أنا لم نؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم نترك اليهودية ، وقولهم (إنما نحن مستهزئون) خبر بهذا المعنى بعينه لأنه لا فرق بين أن يقولوا : إنا لم نقل ما قلناه من أنا آمنا إلا استهزاء . وبين أن يقولوا إنا لم نخرج من دينكم وإنا معكم . بل هما في حكم الشيء الواحد ، فصار كأنهم قالوا : إنا معكم لم نفارقكم ، فكما لا يكون (إنا لم نفارقكم) شيئاً غير (إنا معكم) كذلك لا يكون (إنما نحن مستزئون) غيره " [1].

ويبدو لي من البحث في القرآن الكريم أنَّ علاقة التوكيد من العلاقات المعنوية الرابطة بين الجمل القرآنية التي لا تختص بنوع معين من الجمل ، فقد كانت رابطة بين جملة الاستئناف والجملة التي قبلها ، وهي تربط بين جملة البدل والجملة المبدل منها أحياناً ، وربطت هنا بين جملة التوكيد والجملة المؤكدة .

---

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 175 ــ 176 .

ولنسق شاهداً آخر ليزداد الموضوع وضوحاً ؛ ففي الآية : (مَــا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) نجد جملة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ جاءت توكيداً لجملة ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ ، والمقصود من هذا التوكيد " إثبات الحسن العظيم ليوسف لسماعهم أنه لا شيء أحسن مــن الملــك " [1]، فالجملــة الأولى ﴿مَا هَذَا بَشَراً ﴾نفت كونه بشراً ونفي بشريته يعني دخوله فــي نطاق جنس آخر ، ويفهم من قرائن الحال الذي قيل فيه هذا الكلام نــوع الجنس المراد ، فإن الحال حال تعظيم وتعجب من حُسْن يوسف ــ عليه السلام ــ وجماله ، فدلَّ ذلك على أنهن يقصدن أنه ليس من البشر وإنما هو ملك .

ومن هذا يفهم أن النسوة عندما نفين كونه بشراً أردن وصفه بأنه ملك ، فإن " الجاري في العرف والعادة أنه إذا قيل : ما هذا بشراً ، وما هذا بآدمي ــ والحال حال تعظيم وتعجب مما يشاهد في الإنــسان مــن حسن خَلق أو خُلق ــ أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال إنــه ملك وإنه يكنى به عن ذلك حتى إنه يكون مفهوم اللفظ ، وإذا كان مفهوماً من اللفظ قبل أن يذكر كان ذكره إذا ذكر تأكيداً لا محالة لأن حدّ التأكيد أن تحقق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبــق منــك " [2] ، فكان

---

(1) الصاوي : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، 2 / 242 .

(2) الجرجاني : دلائل الأعجاز ، ص : 177 .

قول : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجملة الثانية المؤكِّدة توكيداً لهذا المعنى الذي تضمنته الجملة الأولى.

والترابط بين الجملة المؤكَّدة والجملة المؤكِّدة ترابط معنوي بعلاقة " التوكيد " التي كانت بسبب التوافق المعنوي بين الجملتين فسوغ ذلك فصل الجملتين وترك عطف الثانية على الأولى .

ونلاحظ أن كل جملة من الجملتين أدت معنى هو عين معنى الجملة الأخرى ، لكنّ اتفاق الجملتين في المعنى لم يكن لمجرد التكرار المعنوي ، وإنما الغرض منه الفائدة الزائدة التي لا يمكن أن تستفاد من كل جملة على حدة ، والفائدة المقصودة هنا التأكيد والمبالغة في إثبات تفوق حُسْن يوسف ــ عليه السلام ــ وجماله على كل حسن وجمال ، وارتفاعه فوق كل تصور ، وما كان لهذا المعنى أن يستفاد من جملة واحدة من الجملتين .

ومن أجل هذه الفائدة الزائدة ، والبلاغة الرائقة للتوكيد أفرد له العلوي فصلاً خاصاً ، قال فيه مبيناً فائدته : " وفائدته إزالة الشكوك ، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده ، وهو دقيق المأخذ ، كثير الفوائد "[1]، ثم قال بعد ذلك : " ليس يخفى موقعه البليغ ولا علو مكانه الرفيع ، وكم

---

(1) العلوي : الطراز ، 2 / 94 .

من كلام هو عن التحقيق طريد ، حتى يخالطه صفو التأكيد ، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد ، وقاعدة للتجويد " (1).

ومن بديع التوكيد أن يأتي لفظياً في الصورة ، فيظن الناظر نظرة عابرة أنه مجرد تكرار لألفاظ الجملة ، بينما هو ينطوي على معانٍ لطيفة قد تخفى على من لم يمعن النظر، من ذلك جملة ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الانشراح : 6] التي جاءت مؤكدة لجملة﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ [الانشراح : 5] ، فإن الجملة المؤكِّدة تكرار لألفاظ الجملة المؤكَّدة ، إلا أنَ هذا التكرار يَفْتَرّ عن درر المعاني .

ومن المعاني اللطيفة في هذه الجملة الكريمة أنها جاءت لتؤكد وتحقق اطراد هذا الوعد بأن اليسر قرين العسر في الدنيا ، والسعة والغنى قرينة الضيقة ، وفائدة التكرير الإطناب والمبالغة(2) ، وهذا المعني اللطيف ، والفائدة البليغة ترجح أنَّ اليسر في الآيتين شيء واحد ، لا يسرين كما ذكر بعض المفسرين ، وقد حقق المسألة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره (3).

---

(1) المصدر السابق ، والصفحة نفسها .

(2) ينظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 20 / 107 .

(3) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 30 / 415 .

وذكر أبو حيان أن جملة ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ مؤكدة لجملة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وذلك في الآية الكريمة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة : 141] ، قال في البحر المحيط : " ولكم ما كسبتم: جملة توكيدية لما قبلها ، لأنه قد أخبر أن كل واحد مختص بكسبه من خير وشر "[1] .

ويبدو لي أن ذلك سهو من أبي حيان ، فإن الجملتين مختلفتان في اللفظ والمعنى، فلا وجه للتوكيد ، وذلك لأن جملة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الحديث فيها عن سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ وأبنائه ، وهم أمة الإيمان ، وجملة ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الحديث فيها موجه إلى أمة الكفر من اليهود الذين كفروا برسالة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهي أمة أخرى ، فكل جملة كان الحديث فيها عن أمةٍ غير التي تحدثت عنها الجملة الأخرى .

وربما يكون أبو حيان قصد أن الآية الكريمة توكيد لآية أخرى جاءت قبلها هي الآية الرابعة والثلاثون ولفظها يتفق مع هذه الآية ، والمعنى فيهما واحد ، لأن الحديث في كلتا الآيتين عن أمة إبراهيم ، قال الله ــ تعالى ــ : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا

---

(1) أبو حيان الأندلسي : البحر المحيط ، 1 / 401 .

تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : 134] ، وهي كما لا يخفى تكرير للفظ الآية الحادية والأربعين ومائة ، والمعنى فيهما واحد .

وبناءً على ذلك فإن الأمر هنا يتعلق بتأكيد مجموعة جمل بمجموعة جمل أخرى ؛ فجملة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾توكيد لمثيلتها في الآية الأولى ، وجملة ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ توكيد لمثيلتها ، وجملة ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ توكيد لمثيلتها ، وجملة ﴿وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾كذلك ، فهنا أربع جمل أكدت بأربع جمل لفظاً ومعنى .

وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك بقوله : " تكرير لنظيره الذي تقدم آنفاً لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتماماً بما تضمنه لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين ، فلم يقتنع فيه بمرة واحدة ومثل هذا التكرير وارد في كلام العرب " [1]، فالغاية إذاً من التوكيد تقرير مضمون الخبر في نفوس المخاطبين وترسيخه اهتماماً بهذا المضمون لغرابته .

إن الامتزاج المعنوي بين الجملة الواقعة بدلاً والجملة المبدل منها ، أو الجملة المؤكِّدة والجملة المؤكدة هو الذي جعل علماء البلاغة يشخصون العلاقة في هذه الحالات ، ويسمونها " كمال الاتصال " ، ويقصدون به اتحاد الجملتين اتحاداً تاماً ، والامتزاج بين المعنى فيهما ،

---

(1) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 1 / 748 .

حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد [1] ، وقد تحقق ذلك في هذا المبحث في ثلاثـــة أمور هي : البدل وعطف البيان ، والتوكيد .

ويعد هذا المــصطلح البلاغـــي " كمـــال الاتـــصال " مـــن أدق مصطلحات البلاغيين في بحثهم لباب " الفصل والوصل " لأنه يدل على المعنى المقصود من غير إيهام ، ويؤثر الباحث هنا أن يسمي هذه الحالة. ربطاً معنوياً ، لتتناغم مع الحالات الأخرى من حالات الربط .

2ـ كمال الانفصال :

ويسمى أيضاً كمال الانقطاع ، وســماه الجرجــاني " الانفــصال إلى الغاية " ، ويتحقق ذلك إذا كانت الجملتان مختلفتين تمام الاختلاف ؛ فتختلفان في نوع الأسلوب فتكون إحداهما خبرية والثانية إنشائية ، أو أن تختلفا بانعدام المناسبة بينهما .

أ ــ **اختلاف الجملتين في الأسلوب** : إذا اختلفــت الجملتــان خبــراً وإنشاء فإنه يفصل بينهما ولا تعطف الثانية على الأولى إذا كـــان ترك العطف لا يوهم خلاف المعنى المراد

وهذا الاختلاف قد يكون في اللفظ والمعنى معاً وقد يكــون فـــي المعنى فحسب ؛ من ذلك فصل جملة : " إن الله يحب المقسطين " عــن

---

(1) ينظر : المراغي : علوم البلاغة ، ص 173 .

جملة : " وأقسطوا " في الآية الكريمة : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [الحجرات :] .

فالجملة الأولى : ﴿ وأقسطوا ﴾ جملة انشائية والجملة التي بعدها : ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ جملة خبرية ، والجملتان مختلفتان في اللفظ والمعنى كما نرى ، وهذا الاختلاف هو سبب وجوب الفصل وترك العطف .

ومن شواهد هذا النوع في القرآن :

1 ــ ﴿ ... وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 4 ــ 5] .

2 ــ ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ [يس :].

ب ــ **اختلاف الجملتين بانعدام المناسبة** : فلا يكون بين الجملتين مناسبة في المعنى فلا جامع بينهما من جهة العقل أو الخيال أو الوهم كما في فصل جملة : ﴿ إنّ الذين كفروا سواء عليهم ... ﴾ عن الجملة التي قبلها في قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 2 ــ 6] .

ويعلل البلاغيون الفصل هنا وترك العطف بالواو في مثــل هــذا بأنه راجع إلى كمال الانقطاع بين هذه الجملة ﴿ إِنَّ الَّــذِينَ كَفَــرُوا ﴾ والتي قبلها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لعدم وجود جامع بينهمــا [1]، وهــذا الاستئناف في الجملة المقصودة هنا استئناف نحوي إذ إن هــذه الجملــة ليست جواباً عن سؤال مقدر يفهم من الكلام السابق ، وذلك لأنه إن قدرنا سؤالاً من الكلام السابق فسيكون مفاده : إذا كان اهتــداء المتقــين مــن الكتاب نتج عن الحكم لهم بالهدى والفلاح فما هي نتيجة مــن لــم يهتــدِ بالكتاب ولم يتبع ما فيه ؟ هذا سؤال متوقع ، والجواب عليه يكون بنحو : الذين لم يتبعوا القرآن ولم يهتدوا به هم الخاسرون. ولا تكون جملة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ جواباً عن هذا السؤال وذلك لأن هذه الجملة استئناف كلام جديد مفاده أن الكــافرين لن يؤمنوا سواء أنذروا أم لم ينذروا .والسؤال ليس عــن إيمــانهم مــن عدمه.

وإذا تأملنا النص وتدبرناه فإننا سنجد أنّ جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قد ارتبطت بجملة ﴿ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ارتباطاً معنوياً على الرغم مــن

---

(1) ينظر : السكاكي : مفتاح العلوم ، ص 243 .

انفصالهما لفظياً فهي كالمقابلة لها في المعنـــى ، فعنـــدما ذكـــر الله ــ سبحانه ــ ما أفاده المؤمنون من الكتاب من هداية حَسُنَ ذكر الفريق الذي لم يؤمن ولم ينتفع بهدى الكتاب ، والعلاقة الرابطة هي التقابـــل أو مـــا يمكن تسميتها " التناظر " فإن الشيء يحسن إذا ذكر بإزاء نظيره

ولم ترتبط الجملتان برابط لفظي لأن الرابط اللفظـــي الـــذي هـــو العطف يفيد نوعاً من المشاركة بين المتعاطفين ، ولـــيس بـــين فريـــق المؤمنين وفريق الكافرين مشاركة في صفة من الصفات المترتبـــة عـــن التعامل مع الكتاب " القرآن " فالعطف يوهم خلاف المراد ، لذا لم تـــأت جملة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ معطوفة على ما قبلها بالواو .

ومصطلح " كمال الانقطاع " الذي جعله البلاغيون سبباً " للفصل" بين الجملتين يوحي بأن لا ترابط بين هذه الجملة المستأنفة والكلام الذي قبلها ، والواقع النصي الذي هو السياق يظهر خلاف ذلك ، فقد تبين من التحليل السابق ترابط هذه الجملة المستأنفة بجملة ﴿ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والترابط بينهما برابط معنوي هو " التناظر " ، ولولا هذا الترابط لكانت الجملة المستأنفة غريبة عن سياقها ،نابية عن أخواتها من الجمل .

وبناء على ذلك فلا انقطاع في النص بين الجملة المستأنفة والتـــي قبلها ، وإنما الحاصل هو مجيؤها بأسلوب يباين أسلوب الجمل التي قبلها، ومرجع ذلك وسببه تباين الغرض ، فالجمل السابقة جاءت للحديث عـــن

الكتاب " القرآن " ، وبيان مكانته وعظيم شأنه ، وهذه الجملة خبر لبيان موقف الكافرين من الدعوة ، وتمردهم ، فلما اختلف مضمونا الجملتـــين، وتباين الغرضان حسن اختلاف الأسلوب ، وتباينت طريقتـــا التعبيـــر ، وهذا ما عبر عنه " شهاب الدين الخفاجي " بقوله : " لأن التبـــاين فـــي الغرض هو الأصل في الفصل والتبـــاين فـــي الأســـلوب مـــن توابعـــه ولوازمه"[1].

3 ـ **شبه كمال الاتصال** : ويتحقق ذلك عندما تكون الجملـــة الأولـــى توحي بسؤال وتأتي الجملة الثانية كالجواب ، فتفصل الجملتـــان ولا تعطف الثانية على الأولى كما يفصل الجواب عن الـــسؤال ، وفي هذه الحالة تكون الجملة الثانية جملة مستأنفة استئنافاً بيانيـــاً وذلك نحو فصل جملة : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ بعد جملة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : 167] .

فهذه الجملة الأخيرة تثير في النفس همساً وتساؤلاً : لِـمَ يكـــون الشيطان عدواً ؟ فيأتي الجواب بذكر الـــسبب ﴿ إِنَّمَـــا يَـــأْمُرُكُمْ بِالـــسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ وأكد الاستئنـــاف بـــ " إنما " ليجيب عن همـــس الـــنفس ،

(1) شهاب الدين ، أحمد بن محمد بن عمر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، دار الطباعة الخديوية ، القاهرة ، مصر ، ط 1 / 1283 هـ ، 1 / 260 .

وأفادت " إنّ " مع التوكيد التعليل أي : ذكر سبب كون الـشيطان عـدواً مبيناً[1].

ومثل هذا نجده في فصل جملة : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) عن الجملة التي قبلها ، وذلك في الآية التاليـة : ﴿ لا يَـسْتَأْذِنُكَ الَّـذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُـسِهِمْ وَاللَّـهُ عَلِـيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِـرِ وَارْتَابَـتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة : 44 ـ 45] ،

فجملة :﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ جملة فعليـة مـستأنفة استئنافاً بيانياً [2] فهي جواب عن سؤال مقدّر نشأ من الجملة السابقة ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾ فكأن المخاطب سأل : فمن ذا الذي يستأذن ؟ فكانت الجملة المستأنفة بياناً وجـوابـاً : ﴿ إِنَّمَا يَـسْتَأْذِنُكَ الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

والمخاطب ـ هنا ـ هو الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ونُزّل منزلة السائل لما في الكلام السابق من معنى يثير في النـفـس تساؤلاً كما تبين من تقدير السؤال ، وأكد الاستئناف بـ " إنما " التي تفيد القصر ، وهي تفيد إثبات أمر الإيمان للذين خرجوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في معركة تبوك ولم يتخلفوا ، وأثبتـت كـذلك نفـي

(1) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 2 / 104 .

(2) ينظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، 10 / 212 .

الإيمان عن الذين استأذنوا في ترك الخروج وهم المنافقون ، وذلـك لأن مفهوم " إنما " هو إثبـات أمـر ، ونفي ما عداه ، وبهذا فـإن القـصر والتوكيد بها تأكيد للجملة المستأنفة ولجملـة : ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ.... ﴾ .

وسبب الفصل بين الجملتين وترك العطف هو كـون الثانيـة كالجواب عن سؤال تضمنته الأولى ، ومعلوم أنه يفـصل بـين جملـة الاستفهام وجملة الجواب لما بينهما من اخـتلاف فـي الأسـلوب إذ إن الاستفهام إنشاء والجواب خبر . فبين الجملتين انفـصال مـن جهـة ، واتصال من جهة أخرى ؛ أما جهة الانفصال فاختلاف الأسلوب فيهما ، وأما جهة الاتصال فكون الثانية جواباً عن الأولى ، وبيان لأحد ركنيها " المسند إليه أو المسند " ، لذا سمى البلاغيون هذه الحالة " شـبه كمـال الاتصال " .

وفي هذا الاستئناف حسن وجمال من عدة جوانب أسلوبية منها :
أَنَّ التعبير بالجملة الفعلية " يستأذنك " يدل على التجدد في طلـب الإذن مرة بعد مرة ؛ وهذا تصوير دقيق لحال المنافقين الـذين يتكـرر مـنهم الاستئذان في مثل هذه المواقف العصيبة التي يبلو الله ــ تعالى ــ بهـا الناس ليميز الخبيث من الطيب ، ويفهم من التجدد معنى آخـر هـو أن المنافقين يتكرر منهم الاستئذان في الموقف الواحد محاولين تبرير تخلفهم

عن الخروج والاعتذار لذلك ، ولأنهم ارتابت قلوبهم فإن نفوسهم مضطربة ، ويخشون أن ينكشف أمرهم لذا فهم يحاولون إقناع النبي بكثرة استئذانهم واعتذارهم كما هي حالة الذين اضطربت نفوسهم لكذبهم، ولعل هذين المعنيين مقصودان هنا ــ والله أعلم ــ بمراده ، ولعل ختام الآية بقول الله ــ جل وعلا ــ ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ يلمح إلى ما أشرت إليه ويؤكده .

ومن جوانب جمال الاستئناف الأسلوبية في هذه الجملة الكريمة مجيء الفاعل " المسند إليه " اسماً موصولاً ، فالتعريف بالاسم الموصول هنا دلَّ على التعريض بهم ، حيث إن صلة الموصول التي عرّفت الموصول دلت على نفي الإيمان عنهم ، وبمجموع الاسم الموصول وصلته يفهم تخصيص المعرض بهم بصفة هي نفي الإيمان عنهم ، وهذا التخصيص نوع من القصر ، وخلاصة ذلك أن التعريف بالاسم الموصول أفاد وصفهم بعدم الإيمان وكأن هذه الصفة هي الصفة التي تميزهم وبها يعرفون لا بغيرها ، وهذا لون معنوي من القصر يقوي القصر بـ " إنما" في الجملة ، ويؤكده .

4 ــ **شبه كمال الانقطاع** : ويكون ذلك بأن تأتي قبل الجملة المفصولة جملتان يصح عطف المفصولة على واحدة منهما ولا يصح عطفها على الأخرى فيترك العطف لئلا يتوهم عطفها على التي

لا يصح العطف عليها ، فالفصل وترك العطف يكون دفعاً للوهم الذي يؤدي إلى فساد المعنى . ومثال ذلك فصل جملة : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ عن الكلام السابق في قول الحق ــ جلّ وعلا ــ: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ... ﴾ [البقرة : 14 ــ 15] .

فإنّ جملة (الله يستهزئ بهم) لو جاءت معطوفة بالواو لظنّ السامع أنها معطوفة على جملة (قالوا) أو جملة (إنا معكم) وكلا الأمرين لا يصحّ ؛ لأنها لو عطفت على جملة لكان المعنى : وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا .. والله يستهزئ بهم ، فتكون الجملة داخلة في حيز الشرط كجملة الجواب ولا يصح المعنى حينئذٍ ، وقد يتوهم أن الواو للحال فيكون المعنى : إذا خلوا إلى شياطينهم حال استهزاء الله بهم... وهذا المعنى لا يصحّ كذلك .

كما أن العطف على جملة (إنا معكم) يوهم أن هذه الجملة من قول المنافقين وهي ليست كذلك . من أجل ذلك فصلت الجملة عن الكلام السابق دفعاً للوهم وفساد المعنى .

5 ــ **التوسط بين الكمالين** : ويقصد به التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانفصال ويكون ذلك بأن تكون الجملتان متفقتين في الأسلوب كأن تكونا خبريتين أو إنشائيتين مع وجود مانع يمنع

العطف فتفصل الجملتان ، والـمانع مـن الـعطف أن يكـون للجملـة الأولى حكم لم يقصد إشراك الثانية فيه وإعطاؤها إياه ، نحو فصل جملة (ألا إنهم هم المفسدون) فقد فصلت عن جملـة ﴿إنما نحن مصلحون﴾ مع اتـفاقـهما في الخبرية ، في الآية : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُـصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 11 ــ12].

والمانع الذي منع الوصل وأوجب الفصل هو عـدم قـصد إشراك جملة (ألا إنهم هم المفسدون) في حكـم جملـة (إنمـا نحـن مصلحون) لأن الإشراك يعني أن المنافقين قالوا : إنما نحن مـصلحون وقالوا ألا إنهم هم المفسدون . وليـس الأمر كـذلك ، فإن جملـة : ألا إنهم هم المفسدون . من كلام الله ــ عز وجـلّ ــ ولـيس مـن كـلام المنافقين.

فالجملتان ــ كما رأينا ــ متفـقتان في الأسلوب وهـذا يـسوغ الوصل ، ومختلفتان في جهة الصدور وهذا يسوغ الفصل لعـدم وجـود المناسبة ، فهذه حالـة متوسطة بين كـمال الاتصال وكمال الانفصال .

ثانياً : الـوصـل :

وهو عطف جملة على أخرى بالواو . كما في : خالد شـاعر ، وعليّ كاتبٌ . فقد عطفت الجملة الثانية على الأولى بالواو ، وهذا يسمى

وصلاً ، والذي حسّـن الوصل وجود مناسبة بين الجملتين فثمة علاقـة بين ركني الإسناد في الجملتين ، وهذه العلاقة علاقة حقيقية هـي كـون المسند إليه فيهما من البشر من جنس واحد ، وكون الشعر والكتابة مـن جنس واحد هو الأدب الإنشائي وهذه المناسبة تعرف عند البلاغيين بـ " الجامع " ، أي : العلاقة الجامعة بين الجملتين المتعاطفتين .

ولا بدّ للجملتين المتعاطفتين من هذا الجامع إذ هو المسوغ للعطف، وقد يكون ذلك الجامع حقيقياً كما بينّا في المثال السابق ، وقد يكون جامعاً ذهنياً كالمضادة والمقابلة . فبين الجملتين التاليتين مضادة : سعد يضحك وزيد يبكي وهذا التضاد هو المسوغ للعطف هنا .

- **مواضع الوصل** :

بحث البلاغيون الحالات التي يسوغ فيها الوصل وحصروها في حالتين هما :

1 ـ كمال الانقطاع مع الإيهام : وكمال الانقطاع يكون عندما تـأتي إحدى الجملتين خبرية والأخرى إنشائية ، وذكرنا سابقاً أنّ حـقّ الجملتين في هذه الحالة الفصل إذا لم يؤدّ إلى لبس في المعنـى ، أمّـا إذا أدى الفصل إلى اللبس فإنه يجب وصلهما ، كما فـي : لا، ويرحمك الله . فإنّ المعنى دعاء للمخاطب بالرحمة ، ويتأتى ذلك بالوصل ، أمّـا إذا فصلنا فقلنا : لا يرحمك الله . فإنّ المعنى

يصير دعاء على المخاطب بأن لا يرحمه الله . والمتكلم إذا قصد الدعاء للمخاطب وفصل الجملتين فإنّ السامع يتوهم أنه قد دعـــا عليه لا له .

يُروى أنّ أبا بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ مــرّ برجلٍ فـــي يده ثوب فقال الصديق : أتبيع هذا ؟ . فأجابه الرجل : لا يرحمك الله . فقال له : لا تقل هكذا وقل : لا ويرحمك الله .

فنرى أنّ الوصل يجب لدفع الإيهام الذي يترتب على الفــصل ، وسمى البلاغيون هذه الحالة : كمال الانقطاع .

2 ــ **التوسط بين الكمالين مع وجود المناسبة** : معلوم مما ســبق أنّ التوسط بين الكمالين مع عدم وجود المناسبة يوجب الفصل ، وهنا نعرض لحالة التوسط مع وجود المناسبة ،التي يجب فيها الوصل بالواو وذلك نحو : (إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجار لفي جحيم) [الانفطار :] .

فقد عطفت جملة (وإن الفجار لفي جحــيم) علـــى جملـــة (إنّ الأبرار لفي نعيم) والجملتان متفقتان في الخبرية والمناسبة التي سوغت العطف هي التقابل ؛ فالجملة الأولى أخبرت عن حال المؤمنين الأبـــرار والثانية أخبرت عن حال القوم المقابلين لهم المضادين لحالهم ، فالمناسبة التي يسميها البلاغيون (الجامع) مناسبة التضاد .

ومثلــه ما كان بين جملة (فليضحكوا) وجملة (وليبكوا) فــي قول الله سبحانه ــ : (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً) .

وبعد أن استعرضنا الفصل والوصل ومواضــعهما ، فــإنّ المتأمــل للشواهد التي ذكرناها ليجد أنّ كلّ حالة من حالات الفــصل أو الوصــل انطوت على سرٍّ بلاغي ومحسِّــن معنويّ يأخــذ بالألبــاب ، ويأســر المشاعر؛ من هذه الأسرار : مجيء الفــصل أو الوصــل للإيجــاز أو الإيضاح والبيان ، أو لتناسب الإيقاع الصوتي مع الدلالة . [1]

---

(1) ينظر : منير سلطان ، بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، ص : 214

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .

1 ــ الآمدي (علي بن محمد) ، الإحكام في أصول الأحكام ، تح / د. سيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، لبنان ، ط 1404/1 هـ .

2 ــ ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تح/ محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، 1995م .

3 ــ الألوسي (أبو الفضل محمود) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 / د . ت .

4 ــ أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، مصر ، د . ت .

5 ــ أحمد جمال العمري ، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط / 1410 هـ = 1990 م .

6 ـــ أحمد الدمنهوري ، شرح الجوهر المكنون ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، مــصر ، ط 2 / 1377 هـــــ = 1958 م .

7 ـــ البيضاوي (أبو الخير عبد الله بن عمر) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر ، ط 2 / 1388 ه = 1968 م .

8 ـــ التفتازاني (سعد الدين مسعود بن عمر) مختصر المعاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1411هـــ .

9 ـــ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، البيـــان والتبيــين ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د. ت .

10 ـــ الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن) ، أسرار البلاغة ، تح / محمد عبد المنعم خفاجي وآخر ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1411 هـــ = 1991 م .

11 ـــ الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن) ، دلائل الإعجاز فـــي علم المعاني ، تح / محمد عبده وآخر ، دار الكتـــب العلميـــة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1409 هـــ = 1988 م .

12 ـ ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص ، تح / محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

13 ـ حسن بن محمد العطار ، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ، عن موقع الإسلام : http://www.al-islam.com .

14 ـ أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف) ، تفسير البحر المحيط، تح / عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1422 هـ - 2001 م .

15 ـ الخطيب القزويني (محمد بن عبد الرحمن بن عمر) ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح / بهيج غزاوي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان ، ط / 1419هـ = 1998م .

16 ـ الخطيب القزويني (محمد بن عبد الرحمن بن عمر) ، تلخيص المفتاح ، تح / ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، 1 / 1423 هـ = 2002 م .

17 ـ الرازي (محمد بن أبي بكر) ، مختار الصحاح، مطبعة الحلبي، القاهرة ، مصر ، ط 1 / 1414 هـ = 1994 م .

18 ــ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1421 هــ = 2000 م.

19 ــ الرضي (رضي الدين محمد بن الحسن) ، شرح الكافية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط / 1405 ه = 1985 م .

20 ــ الرماني (علي بن عيسى) ، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " ، تح / محمد خلف الله وآخر ، دار المعارف ، مصر ، د . ت .

21 ــ الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تح/ عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د. ت .

22 ــ السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر) ، مفتاح العلوم ، تح/ حمدي محمدي قابيل ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر، د .ت.

23 ــ سيبويه (عمرو بن عثمان) ، الكتاب ، تح / عبد السلام محمد هارون ، دار القلم ، القاهرة ، مصر ، ط / 1966 م .

24 ــ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ، الإتقان في علوم القرآن ، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، مصر ، د . ت .

25 ــ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تح / محمد أحمد جاد المولى وآخـــرين ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

26 ــ شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 10 / 1999 م.

27 ــ ابن عاشور (محمد الطاهر) ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، الجمهورية التونسية ، د . ت .

28 ــ ابن عبد السلام (أبو محمد عز الدين عبــد العزيــز) ، مجــاز القرآن ، تح / محمد مصطفى بن الحاج ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ط 1 / 1401 هــ = 1992م .

29 ــ عبد العزيز عتيق ، علم المعاني ، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان ، ط / 1405 هــ = 1985 م .

30 ــ ابن عرفة الدسوقي (محمد بن محمد) ، حاشية الدسوقي علــى شرح التفتازاني " ضمن شروح التلخيص " .

31 ــ العلوي (يحيى بن حمزة) ، الطراز ، تح / عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1423 هــ = 2002 م .

32 ــ فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، دار الفكـر للطباعـة والنشر ، عمان ، الأردن ، ط 2 / 2003 م .

33 ــ الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) ، معاني القـرآن ، تـح / محمد علي النجار وآخرين ، دار السرور ، بيـروت ، لبنـان ، د.ت .

34 ــ القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري) ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشام للتراث ، بيروت ، لبنان ، ط 2 / د . ت .

35 ــ المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل في اللغـة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت ، د . ت .

36 ــ محمد حسن الحمصي ، القرآن الكريم تفسير وبيان ، دار الرشيد، دمشق ــ بيروت ،سوريا ــ لبنان ، د . ت .

37 ــ محمد عبد الخالق عضيمة ، دراسات لأسلوب القرآن الكـريم ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، ط / 1425 ه = 2004 م .

38 ــ محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1406 هــ = 1986 م .

39 ــ محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، ط 2 / 1400 هــ = 1980 م .

40 ــ محمد أبو موسى ، الشعر الجاهلي دراسة في منازع الــشعراء ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، د . ت .

41 ــ أحمد مصطفى المراغي ، علوم البلاغة ، تص / محمود أمــين النواوي ، المكتبة المحمودية التجارية ، القاهرة ، مــصر ، ط / 1972 م.

42 ــ امرؤ القيس ، ديوان شعره .

43 ــ ابن منظور (محمد بن مكرم) ، لسان لعرب ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط / 1375 هــ = 1956 م .

44 ــ ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين)، شرح شذور الذهب، تح / محمد محيي الدين عبد الحميد .

45 ــ ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين) ، مغني اللبيب عــن كتب الأعاريب ، تح / بركات يوســف هبــود ، دار الأرقــم ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1419 = 1999 م .

46 ــ أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله) ، الصناعتين ، تـــح / علي محمد البجاوي ، وآخر ، المكتبة العصرية ،بيروت ، لبنان ، ط / 1986 .

47 ــ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح / مفيد قمحية وآخرون ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 / 1424 هــ = 2004م.

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
المبحث الأول **مفهوم البلاغة القرآنية**	4
مفهوم البلاغة...	7
نشأة البلاغة وتطورها	20
أثر القرآن والسنة في تطور البلاغة...........	22
المبحث الثاني **خصائص الجملة القرآنية**	31
خصائص التركيب	32
خـــصائص الترتيـــب	38
خصائص الذكر والحذف	42
خـــصائص التوكيـــد	48
المبحث الثالث **بلاغة الجملة القرآنية الخبرية**	53
أسلوب الجملة القرآنية	55
بلاغة الجملة الخبرية	56
أغراض الخبر	56
أضرب الخبر	63
المبحث الرابع **بلاغة الجملة القرآنية الإنشائية**	89

الموضـــــــــــوع	الصفحة
تعريف الإنشاء	91
أنواع الإنشاء الطلبي	94
1 ــ جملة الأمر	94
2 ــ جملة النهي	102
3 ــ جملة الاستفهام	108
4 ــ جملة التمني	120
5 ــ جملة النداء	124
المبحث الخامس **بلاغة الفصل والوصل**	129
أولاً : الفصل	132
ثانياً : الوصل	160
المصادر والمراجع	165